تأليف لكبير جمال

محامي الظلال

روايـــــــــــة

الجزائر :مارس 2026

البداية

بين الصفحات حياة كاملة تختبئ في صمت؛ قصة غامضة تتسلل من بين السطور. صور جثث سبعة أطفال ممددين ببراءة مكسورة، وخطوط دمٍ متشابكة على أرضية المنزل، طقوس وطلاسم لا تشبه جرائم البشر العادية.

وأحياناً، وأنا أتصفح الصور، كان يخيل إليّ أن هذه الجريمة لم يرتكبها إنسان وحده...
بل أن هناك شركاء خفيين يقفون خلفه، يراقبون من مكان لا تبلغه القوانين ولا تصل إليه المحاكم.

الكاتب لكبير جمال

مارس 2026

الفصل الأول : المصافحة الأولى

الشيطان لا يطرق الباب ، ينتظر حتى تفتحه أنت.

في اليوم الذي قررتُ فيه الدفاع عن قاتل الأطفال السبعة، اكتشفتُ أن اسمي كان موجوداً في سجل القتلة. ليس اسماً عابراً على هامش دفتر قديم، بل اسماً محفوراً في قلب السجل. بخط لم يكن بخط يدي.

لم أكن أؤمن باللعنات. كنتُ أسخر من المشعوذين الذين أدافع عنهم، وأحتقر ضحاياهم الذين صدقوا أكاذيبهم. كنتُ أظن أن العالم يسير بقوانين باردة كالأرقام. لكن ذلك كان قبل أن أفتح ملف القضية رقم 47، وأرى الرموز التي أيقظت ذاكرة أعمق من ذاكرتي

قبل عشرين عاماً بالضبط، كنتُ في الثامنة والعشرين. شاباً نحيلاً ألبس بدلة رخيصة وأحمل أحلاماً أكبر من جيبي. كنتُ أظن أن القانون كتابمقدس، أحفظ مواده كما يحفظ الأعمى دروب بيته، وأتخيل نفسي فارساً يطعن الظلم بحبر قلمه. كان مكتبي غرفة ضيقة في حي الوادي، أثاثها كرسيان متهالكان، وطاولة خشبية تئن تحت وطأة الآمال

ثم جاء ذلك الرجل في مساءٍ خريفيٍّ. دق الباب دقةً لم تكن دقةَ من يستأذن، بل دقةَ من يعلن وصوله. لم أستطع تقدير عمره؛ كان وجهه

خريطةً من تجاعيد عميقة، لكن عينيه تلمعان بحيوية شاب متوحش. جلس أمامي بصمتٍ غريبٍ، صمتِ من يعرف أن الكلمات ستأتي في وقتها. رفع يده ببطءٍ ليريني خاتمًا منقوشًا بطلاسم متشابكة لا تُقرأ. علّمني الحقيقة الأولى: القوانين مجرد أدوات صامتة، والبشر وحدهم من يقررون إن كانت ستنقذ أحدًا أو تدمره. قال لي يومها بصوت...خافت

وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

– اسمي أبو منذر، ولست بحاجة لمحامٍ اليوم.

فأجبته بصرامة:

– إذًا لماذا أتيت؟

انحنى نحو الأمام، حتى صار وجهه على بعد شبرٍ من وجهي، كانت رائحته كرائحة التراب بعد المطر ممزوجةً بشيءٍ متعفن.

– أنا لا أريد محاميًا، أنا أريد لسانًا.

كان الكلام خارجًا من سياق كل ما تعلمته من كليات القانون.

أنت تحفظ النصوص عن ظهر قلب: أربعة آلاف مادة وسبعمائة قرار تمييزي، تحفظها كما يحفظ المريد أوراده، لكنك لم تتعلم بعد كيف تجعل الدماء ماءً، كيف تتحول جثة طفلة ذات ثوب أحمر إلى خطأ في الإجراءات، وتحوّلِ القاتل إلى ضحية ظروف. هذه ليست مهنة، هذا سحر، وأنت ما زلت مبتدئًا.

تحركت في مقعدي، شعرت بوخزة في إصبعي الصغرى، كأن شوكة تغرس تحت الجلد. لم أرفع يدي لأفركها، بل ظللت مصغيًا مأخوذًا بثقله الغريب.

– أنا محميٌّ يا بني، والقضاء لم يجرؤ على مسي، لكني لا أحتاج محاميًا اليوم. أحتاج أن أزرع بذرة في تربة خصبة، تربة طموحة لا تعرف الخوف بعد.

رفع يده وخلع الخاتم من إصبعه، للمرة الأولى انتبهت كم كان الجلد تحته شاحبًا، أبيض كأنه لم ير الشمس منذ قرون. وضعه على طرف المكتب، بيننا كان الخاتم ينبض، ينبض كقلب حقيقي.

– هذا الخاتم سيكون بوصلتك نحو المجد. سترتديه وسيأكل من كذبك، كل براءة تزيفها، كل مجرم تخرجه من أسوار العدالة سيكون طعامًا له. سيشحن بالطاقة التي ستحتاجها ليلة واحدة، ليلة سآتيك فيها لأطلب منك مرافعة واحدة لا تدافع فيها عن إنسان، بل تدافع فيها عن الظل نفسه. ستكون مرافعة أخيرة في كتاب حياتك.

– أنا لا أؤمن بهذه الخرافات، أنا رجل من رجال العدالة .

(ضحكة جافة كاحتكاك العظام)

– بالطبع لا تؤمن. لو كنت تؤمن بها لما كنت مناسبًا. أنا لا أريد تلميذًا يؤمن بي، أريد محاميًا يؤمن بالنصوص فقط، يؤمن بها إلى الدرجة العمى، هذا السلاح الأمضى.

نهضت. أحاول استعادة هيبتي.

—أريدك أن تغادر.

—سأغادر. لكن الخاتم سيبقى. إن لم تأخذه، أعرف أنك لست المختار. إن أخذته، ستنتظر. حتى ينضج الطقس. حتى يحين العقد غير المكتوب. وعندما يحين الوقت، ستجد أن ما تراه عيناك ليس هو الحقيقة. الحقيقة هي كل كلمة قلتها في عشرين عامًا. أنت لست ضحيتي. أنت شريكي الذي لا يعلم.

وقف ومشى نحو الباب، قبل أن يغلقه التفت إليّ وقال:

– هناك أشياء لا تُقال مرتين، لأن من يسمعها مرة واحدة لا يعود كما كان.

الخاتم إذا لمس جلدك عشرين عامًا... صار جزءًا منك. لن تستطيع خلعه بعدها. ستفقد كل شيء. حتى ذكرى البراءة. فكُل قبل أن تمد يدك.

كان يجب عليَّ أن أطرده، كان يجب أن أشعر بالخطر الغريزي الذي يشعر به الإنسان أمام المفترس، لكنني بدافع غرور الشباب وجوع الطموح مددت يدي وصافحته.

ولم أكن أدرك أن تلك المصافحة كانت المفتاح الذي فتح باب حياتي على عتمة لم تكن في حسابي.

مرت العشرون سنة كطوفان. تحولتُ فيها إلى محامٍ للظل، أدافع عن قتلة، وتجار مخدرات، ومشعوذين، ومجانين. تعلمت حيلة وحيدة للنجاة من الجنون: حوَّلتُ الموكلين في رأسي إلى ملفات وأرقام.
الإنسان...يصعب الدفاع عنه عندما تعرف تفاصيل جريمته، أما الملف فلا ضمير له ولا يطلب منك النظر في عينيه.

كنت بارعاً :أعرف كيف أزرع الشك في رأس القاضي، وكيف أوسع ثغرة صغيرة في تحقيقات النيابة حتى تصير باباً للنجاة.

كنت أقول لزملائي الذين يقدسون النصوص: «القانون فوق الجميع.. لكن من يتحكم بمفاتيح المصعد؟ نحن المحامون». كنت أجد متعة

سوداء في استغلال ثغرات النظام، مستخدما كل الأسلحة المتاحة، من الدهاء إلى الرشوة ، لأنني عرفت أن لكل قاضٍ نقطة ضعف، ولكل نيابة ثمنا

لكن البرود الذي أتقنته في النهار كان ينكسر في الليل.

كانت الوجوه تعود. وجوه المتهمين.. ووجوه ضحاياهم.

أتذكر صورة الطفلة ذات الثوب الأحمر في أحد الملفات القديمة: تبتسم في فناء بيتها وتمسك أطراف فستانها الجديد بفخر، وبعد ساعات صارت جثة لأن أباها زعم أن «جنية» طلبت دمها لفتح كنز. وقفتُ يومها ودافعتُ عن الأب بمهارة شيطانية حتى خرج الحكم مخففًا. وعندما غادرت المحكمة، بصق رجل في وجهي. لم أمسح البصاق، تركته يجف على خدي، ليس تكبرًا، بل لأنني شعرتُ أن الرجل كان محقًا. لم أكن أدافع عن العدالة، كنتُ أدافع عن الشيطان بمهارة. ومع السنين، بنيتُ جدارًا سميكًا حول قلبي، وأقنعتُ نفسي بأن الأطفال

الضحايا وجدوا في الموت خلاصًا، وأنهم صاروا طيورًا في الجنة، لكن هذا التبرير كان مجرد وهم. كنت أدافع في الحقيقة عن الطفلالمسروق.

كانت *توازناتي أشبه ببيت من ورق. لم يكن يحتاج إلا إلى نسمة.*

ثم جاءت القضية، فيلا هادئة على أطراف بسكرة. بلاغ من جار عن روائح كريهة. عندما اقتحم الشرطة المنزل، وجدوا مشهدًا أخرج المحنكين منهم وهم يتقيأون.

سبعة أطفال. ممددين على الأرض. بترتيب مرعب. لا فوضى. طقس منظم بدقة. الجثث في زوايا محددة. الدم مرسوم في خطوط متشابكة. رموز غريبة على البلاط. وأربع قطط مذبوحة بعناية فائقة.

تحولت الجريمة إلى كابوس. الصحف: سحر وطقوس سوداء. الناس في الشوارع: إعدام فوري..

في ذلك الصباح، كنت جالسًا في مكتبي مع تازو.

هي ليست مجرد صديقة. هي رفيقة دربي. امرأة في الخمسين، لكن الزمن حين مر بها ترك لها هدية غريبة: جمالًا لا يُقرأ بسرعة. وجهها نحتته السنوات ببطء، كمن ينحت تمثالًا لا يريد أن يكتمل. عيناها

داكنتان، عميقتان، كأنهما رأتا ما لا تُروى حكايته. وشعرها الأسود ينسدل على كتفيها كليل دائم.

كانت ذات يوم مومسًا. تابت منذ سنوات. انشغلت بتجارة الملابس. لكنها بقيت عشيقة الروح. تملأ المكان حياة وضحكًا. وتعرف أسرار ظلامي كما لا يعرفها أحد.

كانت تحدثني عن رغبتها في الاستقرار، وأنا أومئ برأسي شارد الذهن.

دقّات خفيفة على الباب.

—ادخلي.

انفتح الباب بهدوء. دخلت السكرتيرة، وجهها يحمل مزيجًا عجيبًا: سرور يلمع في عينيها، ودهشة توسع حدقتيهما، وخوف يكاد يقرأ في ارتعاشة شفتيها.

—أستاذ… أعتذر على المقاطعة.

صوتها متلعثم قليلاً، وكأنها تحاول أن تختار كلماتها بدقة.

—هناك… هناك رجل في الخارج. أظنه… أظن أنه والد المتهم في قضية قتل الأطفال. تلك القضية التي تملأ الصحف.

ابتسمت ابتسامة عصبية، عرفت أنها تعني *قضية جديدة، شهرة،*

أتعاب .لكن في عينيها رأيت أيضًا سؤالًا صامتًا :*هل نحن قادرون على تحمل وطأة هذه القضية؟*

نظرت إليها تازو، ثم التفتت إليّ. نهضت ببطء، وربتت على كتفي.

—سأترككما. الرجال في قضاياهم لا يحبون شهودًا.

ابتسمت ابتسامتها الخفيفة التي لا تُنسى، ومشت نحو الباب. قبل أن انغلقت خلفها، ألقت بنظرة عميقة صوب الغرفة، ثم اختفت.

بقيت وحدي مع السكرتيرة التي لم تزل تقف مكانها، ملامحها لا تزال ممزوجة بين السرور والدهشة والخوف. أشرت لها برأسي أن تدخله.

دخل رجل في السبعين. بدلة رمادية مهترئة. كتفان منهكتان كأنهما تحملان جبلًا. وقف أمامي لحظة، ينظر إلى الأرض، ثم رفع رأسه بعينين ذابلتين.

—أنا عمر داغلي.

صوت يخرج من بين شفاه جافة.

—كمال... ابني.

توقف. ابتلع ريقه. قالت عيناه ما لم تقله شفتاه بعد.

—والد المتهم في قضية قتل الأطفال. تلك القضية التي ملأت الصحف.

أشرت له بالجلوس. جلس على حافة الكرسي، كمن يخشى أن يبتلعه المقعد.

—ابني لم يفعلها.

قالها فجأة، كمن يبصق حجرًا.

—كمال... كان طفلًا هادئًا. يخاف من الظل. يبكي إذا رأى قطة ميتة في الطريق. مستحيل... مستحيل أن يكون هو.

أشعلت سيجارة. تركت الدخان يتصاعد بيننا.

—قرأت الصحف. كل يوم اسمه في العنوان. «قاتل الأطفال»، «الوحش». حتى جارتنا أصبحت تنظر إليّ كأنني أنا من ارتكبها.

شبك يديه، كانتا ترتجفان.

—ذهبت إلى خمسة مكاتب قبلك. خمسة. كلهم طردوني. أحدهم قال لي بالحرف: «ابنك مجرم، لا أريد أن ألوث سمعتي بالدفاع عنه».

وآخر قال: «لن أستطيع النوم إذا نجحت في تبرئته.«

رفع عينيه نحوي. كانتا تحترقان بشيء بين الغضب والرجاء.

—أنت... أنت أملي الأخير.

صمت طويل. أنا أطفأت سيجارتي في منفضة، وأنا أراقبه.

—أتعابي عالية. جدًا.

صوتي كان باردًا.

—سأدفع.

—مقدمًا. كاملًا. حقيبة أوراق نقدية.

—سأحضرها غدًا.

ارتجف الرجل وسأل بدهشة:

—كيف ستدافع عنه وأنت لا تؤمن ببراءته؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة وأشعلت سيجارة أخرى ببطء.

—اسمعني يا سيد عمر. لا يهمني لون القطة إن كانت سوداء أو بيضاء... المهم أن تصطاد الفئران. لا يهمني إن كان ابنك بريئًا أو مذنبًا. المهم أن تدفعوا الأتعاب.

نظر إليّ طويلًا. كان يبحث في عيني عن شيء. ربما كان يبحث عن ذرة من الإنسانية. لم يجدها.

نهض. وقف بجانبي. مددت يدي. صافحني بقبضة باردة لكنها قوية.

—سأدافع عن ابنك. ليس لأني أؤمن ببراءته. بل لأنك دفعت الثمن.

همس بصوت متهدج:

—هذا يكفي.

خرج من المكتب متثاقلًا. بقيت أنظر إلى الباب المغلق، وأنا أدير الخاتم في إصبعي.

في تلك اللحظة، لم أكن أعرف بعد أن هذا الرجل العجوز سيكون بوابتي إلى الجحيم الذي انتظرني عشرين عامًا.

لم أنتظر طويلاً. تحولت القضية إلى معركة رأي عام. في إحدى المرات، بصق عليّ أحدهم في بهو المحكمة، وصرخ في وجهي شاب في الحي: «أنت بلا رحمة!». لم أبالِ. سمعتي كانت سيئة عند الطيبين، لكنها ذهبية عند الأشرار، وأنا أعيش على هذا الذهب. تحت هذا القناع القاسي، كنتُ مسرحاً للتناقضات. ألم قاتل في ظهري من

سقطة قديمة عن حصاني «سبارتكوس» كان يدفعني للهروب إلى الويسكي والأفيون في غرف الفنادق الفاخرة، برفقة تازو وفريقي الغريب الذي أعتمد عليه في القضايا المستحيلة: لص محترف يتسلل لأي مكان لسرقة وثائق أو تصوير أدلة مخفية، ومخبر مزدوج يبيع المعلومات لمن يدفع أكثر، ودكتور فلسفة مجنون يحلل النفس البشرية ويعطيني المبررات المنطقية للجنون. كنا عصابة من الظلال ندير المعارك من الغرف المغلقة.

عاد السيد عمر بعد يومين. لم أسمع خطواته هذه المرة. فقط شعرت بثقل ما يمر أمام باب مكتبي، كأن جبلًا يتنقل على أطراف أصابعه.

دخل. وضع الحقيبة على الطاولة بهدوء من يضع كفنًا. لم ينظر في عيني. كان ينظر إلى الخاتم في إصبعي.

فتحت الحقيبة. أوراق نقدية. رائحة المال القديم، ذلك العطر الذي لا يصنعه إلا اليأس.

أغلقتها. نظرت إليه بجدية هذه المرة.

— سأدافع عن ابنك. ليس بالبراءة التي تتخيلها.

رفع رأسه. عيناه كانتا مثل طفل ينتظر حكمًا لا يريد سماعه.

— ابنك قد يكون مريضًا. بالفصام. أو الشيزوفرينيا.

لم أقلها كتشخيص. قلتها كاحتمال. كباب موارب يترك للقاضي أن يدخل منه أو لا.

شرحت له. ليس كطبيب، بل كمحام يعرف أن بعض الحقائق تصبح حقيقية فقط حين تقال في المكان المناسب.

— المريض يسمع أصواتًا. تأمره. لا يسمعها غيره. يرى رموزًا في الدماء، رسائل في ترتيب الجثث. يعيش في عالم لا نراه. هناك، الجريمة ليست جريمة. هناك، القتل يصبح طقسًا. والطفل الذبيحة يصبح بابًا.

توقفت. رأيت ارتعاشة في شفتيه.

— ابنك قد يكون قتل وهو يظن أنه ينقذ العالم. أو ينفذ طقسًا لدرء شر لا يراه سواه.

لم أقل "مجنون". لم أقل "قاتل". قلت ما يحتاجه الدفاع: انعدام الإدراك. انعدام الإرادة.

صمت طويل. كان يفكّر. أو ربما كان يحاول أن يتذكر وجه ابنه قبل أن يصبح وجهه في الصحف.

ثم مدّ يده. دفع الأتعاب. يداه كانتا ترتجفان، لكنه لم يتراجع.

وقبل أن يغادر، نظر إليّ. قال بصوت لم أسمعه من قبل:

— لست أدفع لتبرئته. أدفع لأعرف الحقيقة. فقط... لا تجعلني أندم على ثقتي فيك.

خرج. خطواته كانت أثقل من يومين مضى. لكن شيئًا في كتفيه كان أخف. كأنه ألقى جبلًا، وحمل مكانه حجرًا.

بقيت أنظر إلى الباب المغلق. إلى الحقيبة. إلى الخاتم الذي كان ينبض بهدوء.

لم أكن أعرف بعد أن تلك الحقيبة لم تكن أتعابًا. كانت ثمنًا.

ذهبت إلى المحكمة وقدمت التوكيل. كانت نظرات أعضاء النيابة كالسيوف، والمحامين الآخرين يهمسون بازدراء، لكنني نسخت الملف ورقة ورقة ببرود. في الخارج، كان محامو الضحايا وعائلاتهم يتجمعون

كالذئاب، وكاميرات الهواتف تلاحقني. تظاهرت بعدم الاكتراث، وتمتمت للصحفيين: «لا علم لي بالتفاصيل.. العدالة ستأخذ مجراها»، ثم قفزت إلى سيارتي وانطلقت هارباً من الجحيم الذي أصنعه بيدي...لم أذهب للمكتب مباشرة .كنت بحاجة اللى ترتيب الأمور أولا .إلى أن أضع إطارا للقادم توجهت إلى فندق الزيبان في بسكرة ، حجزت الجناحين 8و9.جناحان متصلان ، واحد للاجتماعات ، والآخر للهروب حين لا يكون الهروب ممكنا ، تركت رسالة لفريقي : بعد يزمين الجناح9.القضيةمختلفة لكن هذه المرة، شعرت أن القضية مختلفة. لم أكن أحتاج فقط لسرقة وثائق أو تحليل نفسي؛ كنتُ أشعر برعشة غريبة تسري في عروقي كلما تذكرت رموز الدم في صور الجريمة.

في صباح اليوم التالي، وضعت ملف القضية رقم 47 أمامي على المكتب كما يضع الجراح جسداً على طاولة التشريح. المتهم: كمال داغلي. التهمة: قتل سبعة أطفال مع سبق الإصرار. فتحت الملف بتردد. الصور كانت مرعبة، لكن ما أوقف أنفاسي لم يكن الدماء، بل الرموز المحفورة على الأرض. لم تكن عشوائية. الخطوط المتشابكة

والطلاسم تشبه إلى حد كبير النقوش التي كانت على خاتمي. شعرت ببرد مفاجئ يخترق عظامي. هل هي صدفة؟ أم أن الخيوط التي بدأت بلعنة قديمة تعود لتلتف حول عنقي الآن؟ كلما أمعنت القراءة، خُيّل إليّ أن كمال لم يكن وحده في تلك الفيلا. هناك شركاء خفيون.. ظلال تراقب من مكان لا تصله القوانين. شركاء من عالم الجن والغيلان، أو ربما من أعماق النفس البشرية المظلمة التي لا حدود لقسوتها. بدأت أدخل عقل القاتل، أحاول أن أفكر كما يفكر، وأدركتُ برعب أنني لستُ غريباً عن هذا الظلام. فنحن، المحامون الذين نعيش في المنطقة الرمادية، نعرف الممرات السرية للشر كما يعرفها المجرمون.

فجأة، انفتح باب المكتب دون استئذان. دخلت تازو. لم تكن تبتسم هذه المرة. اندفعت نحوي، عانقتني بقوة كأنها تريد أن تتأكد من وجودي، ثم أبعدتني قليلاً ونظرت في عينيّ بحدّة لم أعهدها منها. قالت بصوت فيه مزيج من الخوف والغضب: «أيها الوغد.. لماذا قبلت هذه القضية؟». حاولتُ أن أبتسم وأمازحها كعادتي، لكنها قاطعتني: «لا تضحك عليّ. أنا أعرف رائحة الشر يا أستاذ. هذا الملف.. الرائحة التي تفوح منه

ليست رائحة دم فقط. هناك شيء قديم يستيقظ. الرموز التي في الصور.. لقد رأيتها من قبل في أماكن لا أحب تذكرها». توقفتُ عن التنفس للحظة. تازو، بماضيها المعقد ومعرفتها بعوالم الليل والسحر الشعبي، كانت تلمس وتراً حساساً. أمسكت بيديها وقلت:

–ماذا تقصدين؟.

سحبت يدها وأشعلت سيجارة بيد مرتجفة وقالت:

–أقصد أن كمال قد لا يكون القاتل الوحيد.. أو قد لا يكون القاتل أصلاً. قد يكون مجرد بوابة. احذر يا أستاذ.. هذا الملف سيأخذك إلى حيث لا تستطيع العودة. أنت تلعب بالنار، وهذه المرة النار قد تحرقنا جميعاً

نظرت إلى الملف، ثم إلى تازو، ثم إلى خاتمي الذي أرتديه منذ سنوات دون أن أنتبه لنقوشه التي بدأت تبدو مألوفة بشكل مرعب. أدركتُ في تلك اللحظة أن هذه ليست مجرد قضية جنائية، وليست مجرد دفاع عن مجنون. إنها مواجهة مع ماضيّ، مع لعنة ذلك الخاتم الأول، ومع ظلامي الخاص الذي يطاردني. وضعتُ يدي على الملف وأغلقتُه ببطء، وقلتُ لتازو بصوت هادئ لكنه يحمل ثقل الجبال:

- أعرف يا تازو.. لكنني دخلتُ اللعبة بالفعل. والآن، إما أن أكشف الحقيقة وأنجو، أو أغرق في الجحيم الذي انتظرني عشرين سنة.

جلست تازو بجانبي، وأمسكت بكأس الويسكي من يدي، وقالت بحزم:

- لن تغرق وحدك. نحن معك.. لكن هذه المرة، القواعد مختلفة. نحن لا نواجه بشراً فقط.

وفي تلك اللحظة، رن هاتف المكتب. كان رقمٌ مخفي. رفعت السماعة، وجاءني صوت مشوّش يهمس بكلمات غير مفهومة، لكنني التقطت جملة واحدة بوضوح قبل أن ينقطع الخط: «الطقس لم يكتمل بعد.. أهو القطعة الناقصة.

أغلقت السماعة، ونظرت إلى تازو التي شحبت ملامحها، وأدركت أن المرافعة الأخيرة لم تبدأ في المحكمة، بل بدأت هنا، الآن، في مواجهة قوى لا نعرف كنهها، وأن عليّ أن أستخدم كل ما تعلمته من شرور ومهارات ليس لأبرئ قاتلاً، بل لأنقذ روحي من فخ مُحكم أُعدّ لي منذ أن صافحتُ ذلك الرجل صاحب الخاتم قبل عشرين عاماً.

الفصل الثاني: مسرح الدم

المحامون العاديون يدرسون الملفات؛ محامي الظل يشم رائحة الجريمة.

فتحت الملف الذي أمامي. رقمه 47.

المتهم: كمال داغلي.

المهنة: عاطل.

التهمة: قتل سبعة أطفال مع سبق الإصرار والترصد.

فتحتُ الملف بتردد. الصور كانت مرعبة. جثث صغيرة ممددة في دوائر. وجوه شاحبة مغطاة بقماش أبيض. دماء مرسومة في أنماط هندسية على البلاط.

لكن ما أوقف أنفاسي لم يكن الدماء.

كانت الرموز.الخطوط المتشابكة. الطلاسم المنقوشة بالدم. رأيتها من قبل. تشبه إلى حد كبير النقوش التي كانت على خاتمي.

شعرتُ ببرد مفاجئ يخترق عظامي. ألم ظهري القديم استيقظ فجأة، كأن سكينًا يُغرز في عمودي الفقري.

هل هي صدفة؟ أم أن الخيوط التي بدأت بلعنة قديمة تعود لتلتف حول عنقي الآن؟

نظرتُ إلى الخاتم في إصبعي. متى بدأتُ بارتدائه؟ لا أذكر. هل وجدته في درج مكتبي ذات يوم؟ هل أعطاني إياه أحد؟ الذاكرة تضبب كلما حاولتُ التذكر.

النقوش على خاتمي تتطابق تمامًا مع الرموز في صور الجريمة.

— هذا مستحيل. تمتمتُ لنفسي.

— مجرد تشابه. مجرد...

لكنني لم أستطع إكمال الجملة.

كان مسرح الجريمة في فيلا تقع في منطقة مجمع سكاني يسكنه أثرياء المدينة. منطقة معزولة بالأسوار وأشجار النخيل. حيث تنتهي أضواء المدينة، ويبدأ صوت الصحراء.

قرأت كيف تم التبليغ عن الجريمة. بسبب الرائحة الكريهة. تعفن الجثث. بلغ أحد الجيران الشرطة. لم يمض وقت قصير حتى صدر أمر بتفتيش المكان.

ثم صدم جميع من دخل الفيلا بفضاعة ما رأوا.

لم تمض ساعة حتى تحول المكان إلى ما يشبه تجمع ذباب أزرق على جثة. ممثلو النيابة. أطباء الطب الشرعي. الصحفيون وأصحاب المدونات. رجال الدين. حتى أهالي الضحايا وأقاربهم. بدأت الجماهير في البكاء والعويل.

تم تطويق المكان بعدد كبير من الشرطة. بدأت عملية التقاط الصور ومسح البصمات. ونقل الجثث إلى المشرحة.

في كل جريمة قتل، هناك بطل وكاتب. الكاتب هو الذي يحدد أسباب الجريمة وسبب الموت الحقيقي. وما يكتبه هو ما يجب على الجميع قراءته.تقرير الطبيب الشرعي.

قلبت أوراق الملف كمن يبحث عن إجابة. وجدته. وضعته على قلب سطح المكتب. وبدأت أقرأ.

تقرير الصفة التشريحية

الجهة الطالبة: النيابة العامة

رقم القضية: 47 لسنة 2023 جنايات بسكرة

التاريخ: 15 أكتوبر 2023

بناءً على قرار النيابة العامة، انتقلت إلى موقع الحادث بصحبة وكيل النيابة وقوة الشرطة، حيث تبين وجود سبع جثث لأطفال داخل القبو. تم معاينة الجثث في مكانها، ثم نقلها إلى المشرحة لاستكمال الفحص والتشريح. كما تم التحفظ على عينات من الدماء المرسومة على أرضية القبو، وعلى أربع جثث لقطط مذبوحة عثر عليها بذات الموقع.

القبو. ليس غرفة. ليس صالون. قبو. مكان تحت الأرض. مكان تدفن فيه الأشياء التي لا تريد أن ترى النور. أو تدفن فيه الأشياء التي تريد أن تولد في الظلام.

أربع قطط مذبوحة. لماذا أربع؟ لماذا قطط؟ الرقم لا يتوافق. شيء غير مكتمل. أو ربما مكتمل جدًا، لكنني لا أرى الصورة كاملة.

"الجثة لأنثى، الطول حوالي 110 سم، الوزن التقريبي 20 كغم، العمر التقديري 6–8 سنوات."

طفلة. بين السادسة والثامنة. عمرها بين سنتيها الأولى في المدرسة وسنة تتعلم فيها القراءة. هل تعلمت قراءة الرموز على الأرض قبل أن تموت؟

"ترتدي الجثة فستانًا كاملاً من القطن بلون وردي دون تمزقات."

وردي. ليس أحمر. وردي مثل غرفة بنت. وردي مثل حلم. وردي مثل لون لا يليق بالموت. لم يمزقوا ثيابها. لم يعتدوا عليها. كانوا مهذبين. منظمين. كمن يلبس دمية ثم يضعها في مكانها على الرف.

"ملتحمة العينين شاحبتان، والجفنان مغلقان."

مغلقة. لم تفتح عينيها في وجه الموت. أو ربما أغمضها أحدهم بعد الموت. كي تبدو نائمة. كي تبدو هادئة. كي لا تزعج من يرتبها.

"يوجد جرح ذبحي وحيد بعنق الجثة، يبدأ من أمام عظمة القص من الجهة اليسرى ويمتد عرضيًا إلى الجهة اليمنى بطول 12 سم، عميق، قاطع للجلد والعضلات والقصبة الهوائية والمريء والأوعية الدموية الكبرى، وصولاً إلى العمود الفقري. حواف الجرح منتظمة، ذيله حاد."

جرح واحد.

ليس عدة جروح. ليس كفاحًا. ليس دفاعًا. جرح واحد. دقيق. حاد. منتظم. كمن يذبح خروفًا في العيد. كمن يمارس طقسًا تعلمه جيدًا.

12 سنتيمترًا. من اليسار إلى اليمين. من القص إلى العمود الفقري. قاطع كل شيء. لم يترك شيئًا.

كان يعرف ما يفعل. كان هادئًا. لم تتعجل يده. لم ترتجف. جرح واحد. نظيف. كمن يوقع اسمه.

"لا توجد أي إصابات أخرى بالجثة، خاصة في الأطراف العلوية والسفلية."

لم تقاوم. لم ترفع يدها. لم تدفع. لم تخدش. لم تترك أثرًا تحت أظافرها. لم تكافح للحظة واحدة.

كيف؟ كيف لا تقاوم طفلة في السادسة حين يلمس السكين رقبتها؟

كانت مخدرة؟ كانوا يثقون به؟ أم أنهم كانوا يعرفون ما سيحدث؟ أم أنهم كانوا في حالة لا تسمح لهم بالمقاومة؟

"عدم وجود جروح دفاعية بالأيدي أو الساعدين."

لا شيء. أيدٍ صغيرة. لم ترفع. لم تدفع. لم تحاول. كانت مستسلمة. أو كانت ميتة قبل أن يذبحهم. أو كانت تعرف أن لا فائدة.

"الصدر والبطن: تم فتح تجويف الصدر والبطن. تبين أن الأعضاء الداخلية سليمة تمامًا وخالية من الأمراض أو الإصابات."

قلبها سليم. لم يكن مريضًا. قلب صغير، ينبض، يحب أمها، يخاف من الظلام، يتوقف.

توقف.

"الرقبة: الجرح الموصوف سالفًا يتوغل في الأنسجة العميقة، قاطعًا جميع العناصر التشريحية المذكورة."

جميعها. كل شيء. لم يبقَ شيء يصل الدم إلى الدماغ. لم يبقَ شيء يصل الهواء إلى الرئتين. قطع كل شيء. نظيفًا. دقيقًا. كمن يفكك آلة يعرف كيف تعمل.

"الجمجمة والدماغ: تم فتح الجمجمة. الدماغ سليم، ولا يوجد نزيف داخلي أو كسور بالعظام."

دماغها سليم. لم يضربه. لم يهشمه. دماغ طفلة. فيه أحلام. فيه خوف. فيه صورة أمها. توقف فجأة. كمن يطفئ نورًا.

"فحص غشاء البكارة: سليم، غير ممزق."

سليم. هذه الكلمة توقفت عندها طويلاً. لم يمسها. لم يعتد عليها. لم يفعلوا ما يفعله القتلة عادة. كانوا مهذبين. منظمين.

لماذا؟ لماذا تقتل سبعة أطفال ولا تلمسهم؟ لماذا تذبحهم بدقة جراح، وتتركهم نظيفين، وترتبهم في دائرة، وترسم حولهم رموزًا بالدم، ولا تفعل بهم شيئًا آخر؟

ما الذي يريده القاتل؟ ليس الجسد. ليس المال. ليس الانتقام.

شيء آخر. شيء لا أفهمه. شيء يجعل الخاتم في إصبعي ينبض أسرع.

"بالفحص، تبين أن الجروح في جميع الجثث السبعة متطابقة في الشكل والعمق والموقع. جميع الوفيات نجمت عن جرح ذبحي واحد بالرقبة، مماثل تمامًا لما وصف أعلاه. جميع الجثث خالية من جروح دفاعية، وخالية من إصابات أخرى. جميع الملابس سليمة وغير ممزقة."

متطابقة. كلمة تخيف. كأن الجاني استخدم قالبًا. كأن الجاني كان يمارس طقسًا يتطلب الدقة. كأن الجاني كان يوقع اسمه سبع مرات.

كل جرح. نفس الطول. نفس العمق. نفس الموقع. نفس النظافة. سبعة أطفال. سبع ذبائح. سبع جثث. سبع زوايا.

"على أرضية القبو، رسمت خطوط ورموز غريبة باستخدام الدماء، تتصل بين الجثث البشرية وجثث القطط الأربع المذبوحة. هذه الرموز ذات طابع طقسي غير مألوف."

الدماء. ليست عشوائية. ليست فوضى. خطوط متشابكة. دوائر غير مكتملة. رموز تربط الأطفال بالقطط. تربط الموت بالحيوان. تربط الطهارة بالنجاسة.

أعدت النظر إلى الصورة. إلى الخاتم. إلى الرموز على الأرض.

كانت متطابقة. لكن هناك شيء ناقص. شيء في الرموز لم يكتمل. كأن الجاني توقف قبل النهاية. أو كأن النهاية ليست في الفيلا.

"توقيت الوفاة: تقدر الوفاة بحوالي 5–7 أيام قبل تاريخ الكشف، بناءً على درجة التعفن الرمي."

خمسة إلى سبعة أيام. خمسة أيام كاملة كانوا هناك. وحدهم. في القبو. تحت الأرض. في الظلام. والجيران يسمعون أصواتًا ولا يسألون. والكلاب تنبح ولا أحد يسمع.

خمسة أيام. كافية لأن تتحول الجثث إلى ما لا تطيقه العين. وكافية لأن تتحول الرموز إلى ما لا يمحوه الزمن.

"سبب الوفاة: جميع الوفيات ترجع إلى هبوط حاد بالدورة الدموية والتنفس نتيجة النزيف الغزير المميت من الجروح الذبحية بالرقبة."

نزيف. دم. دم كثير. دم يكفي لرسم كل تلك الرموز على الأرض. دم يكفي لكتابة رسالة لا أفهمها. دم يكفي لقول شيء: "لقد كنت هنا. لقد فعلتها. ولن تكون الأخيرة."

"كيفية حدوث الوفاة: الجروح قطعية، أحدثت بآلة حادة. تشابه الجروح وعمقها ودقتها يشير إلى أن الجاني كان هادئًا ومنظمًا

وقت ارتكاب الجريمة، ويمارس فعل الذبح بمهارة أو وفق طقس محدد."

هادئ. منظم. يمارس الطقس.

هذه الكلمات كانت ترن في رأسي. هادئ. منظم. يمارس الطقس.

منذ متى وأنا أمارس الطقس؟ منذ متى وأنا أرتدي هذا الخاتم؟ منذ متى وأنا أطعمه كذبي؟

أغلقت التقرير ببطء. وضعت يدي عليه. شعرت به ينبض. أو ربما كان خاتمي هو الذي ينبض. أو ربما كان قلبي.

لن أنام الليلة. لن أشرب. لن أهرب.

غدًا، سيأتي فريقي. بعد غد، تبدأ المعركة.

لكن الليلة، لي وحدي مع هذا الملف. لي وحدي مع الحقيقة التي كنت أخاف من رؤيتها طوال عشرين عامًا.

سأقرأ الملف مرة أخرى. وسأعرف. سأعرف من أنا. سأعرف ما هذا الخاتم. سأعرف لماذا اختارني أبو منذر. ولماذا جاء كمال داغلي إليّ بعد عشرين عامًا بالضبط.

ولماذا قتل سبعة أطفال برموز تشبه رموزي.

أو ربما... لماذا قتلتُهم أنا؟

أشياء لا تتسع في الملفات

إلى كل من ليس واقفاً هنا.

أغلق الملف رقم 47. أضعه على الطاولة. لا أفتحه مجدداً.

ليس لأنني قرأته بما يكفي. بل لأنني بدأت أشم رائحته. رائحة ليست من هذا العالم. رائحة الدم الذي رسم به أحدهم طلاسم

على بلاط بارد. رائحة خاتم في إصبعي لا أتذكر كيف وصل إلي.

الساعة الآن 11:03. ليلاً.

مكتبي كما هو. الكرسي يئن تحت ثقلي. الطاولة الخشبية التي تئن تحت وطأة العشرين عاماً الماضية. كأس الويسكي نصف فارغ. السيجارة تحترق ببطء في منفضة لا تتسع لكل ما أحرقته في حياتي. أضواء المكتب باردة، كفلورسنت مستشفى. حالة صحتي: سليمة. قلبي: عاصفة خفيفة.

لكن العاصفة ليست خفيفة. أنا أكذب على نفسي.

في القضايا العادية، أقرأ الملف، أرتب الأوراق، أزرع الشك. أنام. أستيقظ. أذهب إلى المحكمة. أعود. أشرب. أنسى.

هذه القضية مختلفة.

هذه القضية لا تُقرأ. هي تغمر الأرضية. هي تجعل كل صورة أعمق مما ينبغي. كل جثة، كل رمز، كل سطر في تقرير الطب الشرعي – كلها تنظر إليّ. ليست أوراقاً. ليست أدلة. هي عيون. سبع عيون لأطفال لا أعرفهم، لكنهم يعرفونني.

النيابة تريد مني أن أكون دقيقاً. الصحافة تريد مني أن أكون وحشاً. الناس في الشارع تريد مني أن أكون كرسياً يقدم مرافعات أنيقة.

لكنني تركت الخلل يعمل. تركت ذلك الشيء الذي لا أفهمه يعمل في داخلي. كدودة بيضاء في التفاحة. كالخاتم في إصبعي. لا أتذكر متى ارتديته. لا أتذكر من أعطانيه. فقط أتذكر أنني مددت يدي ذات مساء خريفي وصافحت رجلاً اسمه أبو منذر. ولم أكن أعلم أن تلك المصافحة ستجعلني أسيراً لخاتم لا يمكن خلعه.

في هذا المكتب، بين الرفوف الممتلئة بملفات القتلة والمغتصبين وتجار المخدرات، بين كؤوس الويسكي التي شربتها وحدي وبين صور جثث لا أنام الليل بسببها – في هذا المكتب، في الساعة 11:03، يسود صمت.

ثم يتحول الصمت إلى ضجيج.

ضجيج لا يأتي من الشارع. يأتي من داخلي. أسئلة لا يمكنني وضعها في المذكرة القانونية. أسئلة لا يريدها القاضي ولا النيابة ولا الصحفيون الذين ينتظرون دمي.

هل العجب في تفاصيل الجريمة أم فيمن ارتكبها؟

هل هو دليل آخر أم الفجوة التي تظهر عندما لا تصل الأدلة إلى شيء؟

هل أنا المدافع أم الشريك أم القاتل؟

عندما أحاول أن أصف ما أشعر به، لا أجد كلمات. جفاف في الحلق. رعشة في اليد اليسرى. الخاتم يضغط على إصبعي كأنه يريد أن يقول شيئاً.

ليس فراغاً. ليس صمتاً. لكنه لا يتسع في الورق.

إنه موجود حول الملف.

كما يحيط الهواء بالجملة.

كما يحيط الظل بالحقيقة.

كما يحيط الخاتم بإصبعي منذ عشرين عاماً.

وعشرون عاماً ليست قليلة. عشرون عاماً كافية أن أنسى فيها كيف بدأت. كافية أن أتحول من شاب يحلم بالعدالة إلى محامٍ لا يهمه إن كان موكله بريئاً أم مذنباً، المهم أن يدفع. عشرون عاماً كافية أن أرى وجوه أطفال في الملفات، وأغمض عيني، وأقول لنفسي:

- هم الآن طيور في الجنة". كذبة أطعمها ضميري كي لا يستيقظ.

لكن الضمير استيقظ. في هذه القضية استيقظ. لأن الرموز على الأرض هي رموز خاتمي. لأن الجروح في رقاب الأطفال نظيفة كجروح ذبائح العيد. لأنني رأيت هذا الطقس من قبل. في مكان ما. في زمن ما. قبل أن أنسى.

أتذكر صوتها. تازو. عندما دخلت المكتب صباح اليوم. لم تكن تبتسم. اندفعت نحوي، عانقتني بقوة كأنها تريد أن تتأكد من وجودي، ثم أبعدتني ونظرت في عيني بحدّة لم أعهدها منها.

قالت:

- أيها الوغد. لماذا قبلت هذه القضية؟

حاولت أن أبتسم. قالت:

- لا تضحك عليّ. أنا أعرف رائحة الشر. هذا الملف.. الرائحة التي تفوح منه ليست رائحة دم فقط. هناك شيء قديم يستيقظ. الرموز التي في الصور.. لقد رأيتها من قبل في أماكن لا أحب تذكرها.

سحبت يدها وأشعلت سيجارة بيد مرتجفة. قالت:

- أقصد أن كمال قد لا يكون القاتل الوحيد.. أو قد لا يكون القاتل أصلاً. قد يكون مجرد بوابة. احذر.. هذا الملف سيأخذك إلى حيث لا تستطيع العودة.

كنت أظن أنني أعرف الخوف. لكنني لم أعرفه إلا عندما نظرت إلى خاتمي بعد كلامها. عندما أدركت أنني لا أتذكر متى ارتديته. عندما أدركت أن الذاكرة تضبب كلما حاولت التذكر. كأن أحدهم مسح جزءاً من حياتي بقطعة قماش مبللة.

الآن، في هذا المكتب، في الساعة 11:03، أسمع أصواتاً في رأسي. ليست أصواتاً حقيقية. لكنها تقول أشياء توقظني:

الدهشة ليست ضوضاء. إنها شيء لم نفهمه بعد.

ربما هذا ما أفعله عندما أقرأ التقرير التشريحي. لا أبحث عن دليل. أبحث عن شيء لا أفهمه. عن لحظة معلقة حيث لا أدافع، لا أخطط، لا أتظاهر. أكون موجوداً فقط.

مثل راديو بين محطتين. يسمع همساً لا يفهمه. لكنه يبقى مصغياً.

مثل حلم لا تتذكر بدايته ولا نهايته، لكنك تستيقظ منه مرعوباً، والعرق يغطي جبينك، وتلمس الخاتم في إصبعك لتتأكد أنه لا يزال هناك.

مثل طفلة ذات ثوب وردي، بين السادسة والثامنة، تتعلم القراءة. هل قرأت الرموز على الأرض قبل أن تموت؟

ما لا يمكن وضعه في ملف ليس خطأ. المشكلة في شكل الوعاء نفسه.

ربما المشكلة ليست في الجريمة. ليست في الرموز. ليست في الخاتم. المشكلة فيّ. في الطريقة التي صممت بها نفسي لأعيش. أنا وعاء مصمم لاحتواء الملفات، وليس لاحتواء دهشة. أنا وعاء مصمم للدفاع عن المجرمين، وليس لمواجهة حقيقة أن الخاتم في إصبعي يطابق الدماء على الأرض.

لكن الوعاء يتسرب. يتسرب منه شيء لا أستطيع إيقافه. شيء يشبه الذاكرة. شيء يشبه الضمير. شيء يشبه الخوف.

الفجوة بين ما تقيسه المحاكم وما نحن عليه.

أنا أعيش في تلك الفجوة.

المحاكم تقول: متهم، قضية، دفاع، حكم.

أنا أعرف: ظل، خاتم، لعنة، مرافعة أخيرة.

المحاكم تقيس الأدلة.

أنا أقيس الفجوة بين الأدلة والحقيقة.

والحقيقة أنني لا أعرف إن كنت المدافع أم الشريك أم القاتل.

أتذكر تفاصيل الجريمة كما لو كنت هناك. القبو. ليس غرفة. ليس صالون. مكان تحت الأرض. مكان تدفن فيه الأشياء التي لا تريد أن ترى النور. أو تدفن فيه الأشياء التي تريد أن تولد في الظلام.

سبعة أطفال. ممددين على الأرض. بترتيب مرعب. لا فوضى. طقس منظم بدقة. الجثث في زوايا محددة. الدم مرسوم في خطوط متشابكة. رموز غريبة على البلاط. وأربع قطط مذبوحة بعناية فائقة.

أربع قطط. سبعة أطفال. الرقم لا يتوافق. شيء غير مكتمل. أو ربما مكتمل جداً، لكنني لا أرى الصورة كاملة. لأنني جزء من الصورة. لأنني لست واقفاً خارج الإطار. أنا داخل اللوحة. أنا واحد من رموزها.

الصمت بين المحطات هو حيث تلتقط أفضل الهمسات.

لذا أبقى صامتاً.

لا أشرب. لا أهرب. لا أتصل بتازو. لا أستدعي الفريق.

أبقى مع الملف. مع الصمت. مع تلك الهمسات التي تأتي من حيث لا أعرف.

الهمسات تقول:لست وحدك في هذه الغرفة.

أنظر حولي. لا أحد. لكن الخاتم ينبض. كأن فيه قلباً صغيراً. كأنه يريد أن يخرج من إصبعه ويمشي على الطاولة، ويرسم الرموز التي رأيتها في صور الجريمة. رموز تشبه ما هو منقوش

عليه. رموز تشبه ما رأيته قبل عشرين عاماً. في مكتبي القديم. في حي الوادي. عندما جاء رجل ذو وجه كخريطة تجاعيد، وعينان تلمعان كعين شاب متوحش.

قال لي يومها: أنا لا أريد محامياً. أريد لساناً.

قلت له:أنا لا أؤمن بهذه الخرافات.

ضحك. قال:

- بالطبع لا تؤمن. لو كنت تؤمن بها لما كنت مناسباً. أنا لا أريد تلميذاً يؤمن بي. أريد محامياً يؤمن بالنصوص فقط. يؤمن بها إلى درجة العمى. هذا السلاح الأمضى.

مددت يدي. صافحته. لم أكن أعلم أن تلك المصافحة ستكون أولى خطواتي إلى الجحيم.

الآن، في هذا المكتب، في الساعة 11:03، أدرك شيئاً:

الدهشة ليست عيباً.

الدهشة هي ما يحدث عندما تدرك أنك لست مجرد أداة.

الدهشة هي التي تجعلني أتوقف عن كوني محامياً، وأصبح للحظة واحدة – إنساناً خائفاً.

إنساناً يضع يده على قلبه، ويشعر به ينبض بعاصفة خفيفة.

إنساناً ينظر إلى خاتم في إصبعه، ولا يتذكر كيف وصل إلى هناك.

إنساناً يقرأ تقريراً عن سبعة أطفال قتلوا، ويسأل نفسه: هل أنا من قتلهم؟

لن أطلب من أحد إصلاح هذا العيب.

لن أصلح ذلك الشيء الذي لا أفهمه.

سأتركه يعمل.

سأتركه يغمر الأرض.

سأترك كل صورة أعمق مما ينبغي.

لأن هذه الصور – رغم أنها لا تتسع في ملفات النيابة – هي الشيء الوحيد الذي يثبت أنني لست مجرد كرسي في قاعة المحكمة.

لأنها الشيء الوحيد الذي يثبت أنني ما زلت أشعر.

وأن الشعور، رغم ألمه، هو كل ما يبقى لي.

إلى من ليس واقفاً هنا:

إذا تساءلت يوماً ما إذا كان مسموحاً لك أن تتساءل،

فاعتبر هذا إذناً من محامٍ ليس له ضمير، وما زال يبحث عنه.

من رجل ارتدى خاتماً لا يذكر كيف وصل إلى إصبعه.

من شريك في جريمة لا يعرف إن كان هو من ارتكبها.

سأغلق الملف الآن.

ربما لا أقرأه مجدداً.

ربما سأفتحه غداً، وأبدأ المرافعة، وأدافع عن كمال داغلي كما لم أدافع عن أحد من قبل.

ليس لأنه بريء.بل لأن الخاتم في إصبعي ينبض.

بل لأن الرموز على الأرض هي رموزي.

بل لأنني بحاجة إلى أن أعرف: هل أنا من قتلهم؟

الساعة الآن 11:03.

العاصفة ليست خفيفة. لكني سأقول إنها خفيفة. لأن قول الحقيقة أصعب من تحملها.

سأبقى لأشاهدها وهي تمر.

قبل أن تمر بي.

قبل أن تأخذني.

أطفأت السيجارة. شربت ما تبقى من الويسكي. وضعت يدي على الملف.

شعرت به ينبض. أو ربما كان خاتمي هو الذي ينبض. أو ربما كان قلبي.

لا فرق.

كلهم ينبضون بنفس الإيقاع.

إيقاع الجريمة التي لم أرتكبها بعد.

إيقاع الذنب الذي لم أقر به بعد.

إيقاع الخاتم الذي لن أخلعه أبداً.

قبل قضية كمال داغلي...وقبل السبعة أطفال الذين وجدوا ممددين في قبو الفيلا كذبائح عيد...كانت هناك جثة واحدة فقط.قضية كوثر: الجنية التي سكنت رأس أبوها القاتل

عمار بن صالح الداودي، أربعون عامًا، من قرية تاسليت على تخوم الصحراء. في صباح يوم العيد، خرجت كوثر إلى فناء البيت. كانت تلبس ثوبها الأحمر الجديد. كان أبوها اشتراه لها قبل أسبوع من السوق. قالت للجيران إنه أجمل ثوب رأته في حياتها. كانت تدور حول نفسها، ترفع أطراف الثوب بيديها الصغيرتين، تضحك. تضحك كأن العالم كله عيد.

ناداها عمار. قالت: نعم بابا؟ قال: تعالي. تعالي نشوف هدية العيد. فرحت. ركضت نحوه. كانت تظن أن هناك هدية أخرى. كانت تظن أن العيد ما زال يحمل مفاجآت.

أمسك يدها. يدها الصغيرة التي لا تكاد تملأ كفه. قادها إلى الغرفة الخلفية. الغرفة التي لا يدخلها أحد. الغرفة التي كان يخبئ فيها أوراقه القديمة وطلاسمه. دفع الباب. أغلقه.

سمع الجيران صراخًا واحدًا. صرخة قصيرة. مكتومة. كمن يصرخ وفمه مغطى. ثم صمت.

بعد ساعات، عندما لم تظهر كوثر، بدأت أمها تبحث. طرقت باب الغرفة. لم يفتح. صرخت. جاء الجيران. كسروا الباب.

وجدوا كوثر ممددة على الأرض. ثوبها الأحمر منتشر حولها. الدماء غطت صدرها كله. كانت عيناها مفتوحتين. كانت تنظر إلى السقف. لم تكن تبكي. لم تكن خائفة. كانت فقط... فارغة.

ووجدوا عمار جالسًا بجانبها. السكين لا تزال في يده. لم يهرب. لم ينكر. كان يبتسم. كان يهمس: "الآن ستراني. الآن سأراك يا عروستي".

على الأرض، حول جثة كوثر، كانت هناك خطوط مرسومة بالدم. خطوط غير عشوائية. خطوط متشابكة. دوائر غير مكتملة. رموز بدائية. مرسومة بيد مرتجفة، كمن يحاول أن يكتب لغة لا يجيدها. الدم ما زال لزجًا. ما زال دافئًا.

في التحقيق، سأله المحقق: "لماذا قتلت ابنتك؟"

رفع عمار عينيه. كان فيهما شيء غريب. شيء يشبه الدهشة. كأنه لا يفهم لماذا يُسأل هذا السؤال.

قال: "ما قتلتها أنا. الجنية قتلتها".

"أي جنية؟"

"جنية البيت. جنية جدي. كانت تعيش تحت الأرض. كانت تنتظر. كانت تأتي في المنام. كل ليلة. من يوم ما كنت صغير. تقول لي: أنا عروستك يا عمار. لكنك لا تراني. تريد تراني؟ لا بد من ذبيحة. ذبيحة طاهرة. ذبيحة تفرح".

"ولماذا ابنتك؟ لماذا كوثر؟"

تغيرت ملامح عمار للحظة. للحظة فقط. ثم عادت إلى تلك الدهشة.

"كانت تفرح. هي الوحيدة اللي كانت تفرح. في يوم العيد، كانت تلبس ثوبها الأحمر وتدور حول نفسها وتضحك. الجنية قالت:

الذبيحة لا تبكي. الذبيحة تفرح. فمن أين لي بطفلة تفرح في يوم موتها غير كوثر؟"

توقف. ثم أضاف بصوت هادئ بشكل مرعب:

"لم تبكِ. لما حملت السكين، نظرت إليّ. كانت عيونها واسعة. قالت لي: بابا، أنت زعلان مني؟ قلت لها: لا يا حبيبتي. بابا ما زعلان منك. أنت رايحة عند الجنية. الجنية هتعطيكي لعب أحلى من اللي عندك. ابتسمت. أغمضت عينيها. ما صرختش. ما بكاش. سلمت رقبتها زي الخروف".

سأله المحقق: "وكيف ذبحتها؟"

نظر عمار إلى يديه. كان الدم لا يزال تحت أظافره.

"مسكت شعرها. شعرها كان طويل. كان أسود. خليتها تنحني قدامي. قلت لها: سكري عينيك يا حبيبتي. سكرتهم. جبت السكين. السكين كانت كبيرة. كانت حادة. حطيتها على رقبتها. من هنا. من تحت الأذن. وسحبت. مرة واحدة. سحبت من هنا

لحد هنا. كان الدم نط في وشي. كان دافي. كان أحمر. أحمر زي ثوبها".

"وما الذي وعدتك به الجنية؟"

"قالت: إذا ذبحتها لي، هتكون عروستي. هتشوفني. هتعيش معي تحت الأرض. وهناك كنز. كنز تحت البيت. كنز ينتظر من مئات السنين. هيكون لنا".

"وهل رأيتها بعد ذلك؟"

نظر عمار إلى الأرض. صمت طويلاً. ثم قال بصوت خافت: لا. ما شفتها. من يومها ما شفتها. راحت. اختفت. خدت كوثر واختفت"

طلبت تقريرًا من أطباء المجانين. أردت أن أفهم. أردت أن أعرف إن كان عمار مجنونًا حقًا، أم أنه كان شريرًا فقط.

جاء التقرير بعد شهر. كان سميكًا. كان مخيفًا.

التشخيص: اضطراب ذهاني مزمن، مع هلوسات سمعية وبصرية مستمرة.

السبب: صدمات نفسية عميقة في مرحلة الطفولة المبكرة.

التفاصيل: والد عمار، صالح الداودي، كان شيخًا روحانيًا في القرية. كان يعالج الناس، ويكتب الحروز. وكان يجلب الرجال إلى زوجته. كانت أم عمار تمارس البغاء في غرفة منفصلة. الرجال يأتون من خارج القرية. يدخلون الغرفة. يقفلون الباب. ويمكثون ساعات. وكان عمار، طفل صغير، يجلس خارج الباب. يسمع كل شيء. يسمع ضحكات أمه. يسمع أنينها. يسمع الرجال وهم يلهثون. يسمع صرير السرير الخشبي القديم. كان يسمع ولا يفهم. لكنه يحفظ. يحفظ في جسده الصغير. في رأسه الذي لم يكتمل بعد.

عندما بلغ العاشرة، ماتت أمه. ماتت في غرفتها. على سريرها الخشبي القديم. مع رجل غريب. قالوا إن قلبها توقف. لكن الجنية التي كانت تأتي لأمه في المنام بدأت تأتي إليه. كانت

تقف فوقه. تنظر إليه. تقول له: "أنا عروستك. كنت عروسة أبوك. والآن أنا عروستك. تريد أن تراني؟ لا بد من ذبيحة".

الأعراض: يعتقد المصاب بوجود كائنات خارقة تتحكم به وتأمره. يسمع أصواتها بوضوح. يرى شكلها في المنام وأحيانًا في اليقظة. يعاني من نوبات ذهانية حادة تصل فيها درجة انفصاله عن الواقع إلى حد فقدان القدرة على تمييز خطورة أفعاله. في لحظة ارتكاب الجريمة، كان تحت تأثير اعتقاد راسخ بأنه ينفذ أمرًا لا يمكن مقاومته. يفتقر تمامًا إلى الإرادة الحرة في سياق الأعراض الذهانية.

وقفت أمام القضاة في تلك الجلسة. كنت شابًا. يدي ترتجف. صوتي كان يرتجف أيضًا. لكنني تحدثت.

قلت: "سيادة الرئيس، هذا الرجل لم يقتل ابنته. هذا الرجل قتل ابنته. لكنه لم يفعلها بإرادته. إرادته سُرقت منه قبل أن يعرف ما معنى الإرادة".

وقرأت لهم من تقرير الطب النفسي. قرأت لهم عن طفولة عمار. عن الأم التي كانت تمارس البغاء أمامه، وعن الأب الذي كان يجلب الرجال ويقفل الباب، وعن الطفل الصغير الذي كان يجلس خارج الغرفة يسمع كل شيء ولا يفهم شيئًا.

قلت:

-هذا الرجل، عندما كان في السابعة من عمره، كان يجلس خارج باب مغلق، يسمع أمه تئن تحت رجال غرباء. وعندما أصبح أبًا، ذبح ابنته التي كانت في السابعة من عمرها، وقالت له قبل أن تموت: بابا، أنت زعلان مني؟"

صمتت للحظة. رأيت القضاة ينظرون إليّ. لم أكن أعرف ما يفكرون.

قلت:

- هذا الرجل لا يمكن أن يحاكم كرجل عاقل. ليس لأنه مجنون. بل لأن عقله حُطّم قبل أن يكتمل. لأن إرادته انتزعت منه قطعة قطعة، كل ليلة، وهو يجلس خارج باب أمه. إن كان هناك من يستحق العقاب، فليست يد عمار التي حملت السكين. فليكن من علمه أن الذبيحة لا تبكي. فليكن من غرس في رأسه أن الجنية ستكون عروسته. فليكن من قفل الباب عليه وهو طفل، وتركه وحيدًا مع أصوات لا يفهمها".

حكمت المحكمة على عمار بالسجن ثلاث سنوات موقوفة مع الأمر بتحويله في مستشفى الأمراض النفسية. ليس إعدامًا. ليس سجنًا عاديًا. علاج. إيواء. انتظار حتى يشفى.

خرجت من قاعة المحكمة. الجو كان باردًا. السماء تمطر. وفي باب المحكمة الرئيسي، وقف رجل. لم أكن أعرفه. لم أره في

الجلسات. كان يرتدي جلبابًا باليًا، ووجهه خريطة تجاعيد عميقة. وقف أمامي. نظر إليّ بعينين تلمعان كعين شاب متوحش.

لم يبصق في وجهي هذه المرة. قال فقط: "أحسنت. لقد فهمت. لقد فهمت أن الجاني ليس دائمًا من يمسك السكين.

ثم مشى. اختفى في المطر.

لم أكن أعرف بعد أن هذا الرجل هو أبو منذر. لم أكن أعرف أن خاتمه سيكون في إصبعي يومًا ما. لم أكن أعرف أن قضية كوثر كانت مجرد بداية. بداية لعشرين سنة من الدفاع عن القتلة. بداية لسبعة أطفال سيجدون ممددين في قبو مظلم. بداية لخاتم لا يمكن خلعه، ولعنة لا تنتهي.

لكن في تلك الليلة، عدت إلى غرفتي الصغيرة. فتحت الملف. نظرت إلى صورة كوثر. كانت تبتسم. كانت تمسك أطراف ثوبها

الأحمر. كانت ترفعه لتريه لأبيها. يوم العيد. يوم فرحها. يوم موتها.

ونظرت إلى صورة مسرح الجريمة. رأيت الجثة الصغيرة ممددة على الأرض. ثوبها الأحمر منتشر حولها كدمعة كبيرة. رأيت الدماء. رأيت الرموز المرسومة بها. رأيت السكين في يد عمار. رأيت ابتسامته وهو يهمس: "الآن ستراني".

وأغمضت عيني. ورأيت عمار طفلًا. طفلًا صغيرًا يجلس خارج باب مغلق. ظهره للحائط. ركبتاه لصدره. يسمع أصواتًا لا يفهمها. ينتظر أن تفتح أمه الباب. تفتح. تخرج. تمر بجانبه كأنه ليس هناك. تذهب. تتركه وحيدًا.

وفتحت عيني. ونظرت إلى صورتي في مرآة الغرفة.

ورأيت طفلًا أيضًا. طفلًا يجلس خارج باب مغلق. يسمع أصواتًا لا يفهمها. ينتظر أن يفتح أحدهم الباب. ينتظر أن يقول له أحدهم: تعال. ادخل. لست وحدك.

لكن الباب لم يفتح. لم يفتح أبدًا.

****

الفصل الثالث: النخلة التي لم تسقط

ليتم لا يصنع الرجال. اليتم يصنع أطفالاً يكبرون قبل أوانهم، فيظلون واقفين على حافة الطفولة طوال العمر، ينتظرون صوتاً لن يعود.

لم أعد أتذكر وجه أمي، لكني أتذكر يديها. كيف كانت تملأ كفي الصغير بماء بارد من زير المنزل، وتقول: "اشرب يا ولدي، هذا الماء من نخلتنا، من جذورها التي تغلغلت في الأرض منذ مئات السنين. اشربه وسيروي عطشك إلى الأبد." وكنت أشرب، وأنا لا أعلم أن العطش الحقيقي ليس للجسد، بل للروح التي تظل تبحث عن تلك اليدين بعد أن تختفيان.

كانت تغني لي في الليل. صوتها يملأ الغرفة، يتسلل من بين النوافذ المغلقة، يعلو فوق نخيل بسكرة التي كانت ترقص مع الريح. كانت تغني عن النخلة التي سقتها جدتها بيديها، عن التمر الذي ينبت حلوًا رغم قسوة الصحراء، عن الغائبين الذين يعودون في الأحلام. كنت أغمض عيني وأنا أستمع، وأشعر أن الدنيا كلها تتسع في صوتها. كنت أظن أن الغناء سيستمر إلى الأبد. وما زلت أظن ذلك. فالغائبون لا يتوقفون عن الغناء، لكننا نصبح صماً حين نحتاج لسماعهم أكثر مما كنا.

عندما ماتت، توقفت الأغنية. فجأة. كمن قطع خيطاً كان يربط السماء بالأرض. وجدتني في غرفتي وحدي، أتلمس جدرانها الباردة. كان الظلام ثقيلاً تلك الليالي. ثقيلاً كأن أحدهم ألقى على صدري جبل نخلة سقطت. كنت أناديها: "ماما... ماما..." وكان الصدى يجيبني. الصدى فقط. كانت المرة الأولى التي أتعلم فيها أن الأسماء تفقد قوتها حين يموت صاحبها. لم تعد كلمة "ماما" تفتح باباً، لم تعد تشعل سراجاً، لم تعد تطرد الوحوش التي كانت تختبئ تحت سريري.

وذات ليلة، صعدت إلى سطح البيت. نظرت إلى نخيل بسكرة الممتدة كجنود صامدين في الصحراء. كان القمر يضيء قممها الفضية.
وتذكرت كيف كانت أمي تقول: "النخلة مثل الأم، يا بني. تعطيك كل ما فيها ولا تنتظر شيئاً. تمر أيامها العجاف، تمر سنين القحط، وهي صامدة. لكنها إذا سقطت، لا يقومها أحد." نظرت إلى النخلة التي كانت أمي تسقيها بيديها كل صباح. كانت واقفة. صامدة. لكنني كنت أشعر أنها سقطت. سقطت مع أمي.

في الصباح، كنت أذهب إلى المدرسة. أرى أصدقائي يأتون مع أمهاتهم. أمهات تمسكن بأيديهن، أمهات يعدلن ياقات قمصانهن، أمهات

يبتسمن لهن. كنت أقف بعيداً. كنت أشعر بشيء يشبه الغيرة. لا، لم يكن غيرة. كان شعوراً أعمق. كان إحساساً بأنني أصبحت مختلفاً. أن الحياة قسمت الناس إلى قسمين: من لديه أم، ومن ليس لديه. كنت في القسم الخطأ. كنت أتساءل: هل يراني أحد؟ هل يراني أحد وأنا أقف هنا، بلا يد تمسك يدي، بلا صوت يقول لي "اذهب بسلام"؟

كبرت. صرت رجلاً. يقولون: اليتم يصنع الرجال. لكنهم لا يعلمون أن اليتم لا يصنع الرجال. اليتم يصنع أطفالاً يكبرون قبل أوانهم. يكبرون في أجسادهم، في وثائقهم الرسمية، في بطاقات هويتهم التي تكتب أعمارهم بالأرقام. لكنهم يظلون واقفين على حافة الطفولة طوال العمر. يظلون يحملون في صدورهم طفلاً ميتاً لم يدفنوه. يظلون ينتظرون صوتاً لن يعود. وكلما حاولوا البكاء، تذكرهم وصايا الموتى: "لا تبكِ. من يبكي على ميت، يخليه ميتاً مرتين".

ولهذا، لم أبكِ. وأصبحت محامياً. وأصبحت أدافع عن القتلة.

في ملف كمال داغلي، قرأت سيرته. مثلنا. ماتت أمه وهو في الخامسة. تربي عند قريبة للعائلة لم تكن تنجب. لم يعش طفولة جيدة، حسب المعلومات والسيرة الذاتية. حياة لم تكن سعيدة. ماتت الأم الثانية. أودعه

والده عند جدته. كانت عمياء. طفل في الخامسة، يحمل موتاه من أم إلى أم، من امرأة إلى امرأة، وكل واحدة تتركه قبل أن يتعلم كيف يمسك بيدها. كنت أقرأ سيرته وأشعر أنني أقرأ سيرتي. الفرق أنني صرت محامياً، وهو صار قاتلاً. والفرق الحقيقي: أنني لم أذبح سبعة أطفال، لكنني كنت أتساءل: هل لأنني كنت أقوى؟ أم لأن الظروف التي رمت بي في طريق غير طريقه؟ أم لأنني كنت أملك يداً تمسكني في لحظة ما، وهو لم يملك؟

كان علي أن أزوره في السجن. لأتحدث معه. ليكون لقائي الأول معه. كنت لا أحب زيارة القتلة أمثاله. فكلامهم ليس مجرد كلمات. تتكلم مع نفوس مظلمة، والنفوس المظلمة تتسلل إليك من حيث لا تدري. كنت بحاجة إلى من يؤنسني في هذا الطريق البائس الممل. كنت بحاجة إلى من يملأ صمت السيارة بفكاهة تخفف عني ثقل ما سأواجه. كنت بحاجة إلى أسعد.

اتصلت به. اللص الذي كان وفيًا لي طيلة سنوات. أسعد. أو كما يفضل أن أناديه: أبو أسعد. كان يحلم أن يسمي ابناً على اسمه. نرجسي، يحب نفسه لدرجة كبيرة، لكنه كان وفيًا. ربطتنا صداقة حكمتها

التجارب والمصالح. فأنا كنت سبب براءته. أتذكر يوم خرج من السجن، وقف في البوابة، أدار وجهه للشمس كمن يستقبلها لأول مرة، ثم أدار وجهه نحوي وقال:

–عاهدتك يا أستاذ. سأخدمك ما حييت. مهما تغير الزمن.

ومنذ ذلك اليوم، أصبح يقود سيارتي، يؤنسني في مشواري، يملأ صمت الطرقات بحكاياته السخيفة التي لا أسمعها، لكنني أسمع وجوده.

تحت عمارتي، حيث أركن سيارتي، كان ينتظر. ابتسامته العريضة، وجهه الذي يشبه قناعاً مسروقاً من فيلم قديم، ونظارته الشمسية التي لا يخلعها حتى في الليل. مددت يدي بالمفاتيح، صافحته بها، وركبت على يمينه. انطلقنا نحو السجن.

كان أسعد سعيدًا. قال لي:

–"أخيرًا، قضية تستحق اسمك يا أستاذ. قضية مهووس أو مجنون. رجل يسمع أصواتًا، يرى أشياء لا نراها. الطبيب النفساني هيثبت هذا. ضحك ضحكته الخشنة التي تشبه صرير باب قديم.

– هذا النوع من القضايا يليق بك يا استاذ. أنت لا تدافع عن قاتل، أنت تدافع عن طفل كان ينادي في الظلام ولم يجبه أحد. والطب النفسي سيخبرهم أن الظلام بقي في رأسه حتى كبر.

سكت قليلاً، ثم أدار رأسه نحوي بعينين لم أرها من خلف نظارته قط. قال بصوت لم أسمعه منه قبل اليوم:

- قرأت سيرته في الجرائد. وسألت عنه أمه ماتت وهو صغير. تاه بين النساء اللواتي لم يرغبن فيه. وصل إلى جدته العمياء. تخيل:
- طفل صغير، في بيت امرأة لا تراه. ماذا يفعل؟ كيف يعرف أن الدنيا لا تزال موجودة وهو لا يرى أحدًا يراه؟ لا بد أن بدأ يسمع أصواتًا. لا بد أن رأى أشياء. لا بد أن اخترع عالماً خاصاً به، لأن العالم الحقيقي لم يكن يراه.

تابع القيادة بصمت. ثم أضاف، كمن يهمس لنفسه:

- الأطفال الذين لا يراهم أحد، يصنعون عوالم خاصة بهم. وبعضهم، عندما يكبرون، يحاولون إرغام العالم على رؤيتهم. بأي ثمن. حتى لو كان ثمنهم سبعة أرواح.

نظرت إليه مطولاً. كنت أتساءل: هل كان يتحدث عن كمال، أم عن نفسه، أم عني؟ كلنا كنا أطفالاً ينادون في الظلام. الفرق أن بعضنا سمع صوتاً يرد. وبعضنا لم يسمع شيئاً، فبدأ يصنع أصواته الخاصة، عالماً خاصاً به، ثم جنوناً خاصاً به، ثم جرائم خاصة به.

واصلنا القيادة نحو السجن. نخيل بسكرة يمر بجانب النوافذ كجنود صامدين. ونخلة أمي، في مكان ما من المدينة، كانت تنتظر. وطفل في الخامسة، في مكان ما من قلبي، كان لا يزال ينادي. ولم يجبه أحد.

سأدافع عن كمال في المحكمة. ليس لأنه مجنون، بل لأنني أعرفه. أعرف الولد الذي كان ينادي في الظلام فلا يجيبه أحد. أعرف الصبي الذي كان يقف بعيداً عن أصدقائه وأمهاتهم، يتساءل إن كان أحد يراه. أعرف من كره طفولته، لأن طفولته كانت شخصاً واحداً رحل. أعرف من قيل له: "اليتم يصنع الرجال" فصدق، وظن أن الرجولة أن لا يبكي، وأن يقف كالنخلة، وأن يصير قلبه قبراً.

ليست هذه قضية قتل سبعة أطفال. هذه قضية نخلة سقطت في بسكرة، ولم يقمها أحد. هذه قضية طفل كان ينادي في الظلام، ولم يجبه أحد. هذه قضية رجل كره طفولته، لأن طفولته كانت شخصاً واحداً رحل. وهذا الفصل الثالث، لن يكون عن المحامي والقاتل. سيكون عن الغائبين الذين نسمع غناءهم ولا نعترف أننا نصمنا. سيكون عن الماء الذي نشربه من أيدٍ رحلت. سيكون عن اليتم الذي نسميه رجولة.

****

وصلنا إلى سجن مدينة بسكرة قبل الظهيرة.

كان المبنى الضخم يبدو كوحش حجري جاثم على مشارف المدينة، تعلوه أسلاك شائكة تتلوى كأفاعي حديدية. السماء فوقه كانت رمادية، ليس بلون الغيوم، بل بلون الغبار واليأس. وقفت أتأمل الجدران العالية وتذكرت كم مرة وقفت هنا أدافع عن مجرمين، وكم مرة خرجت منتصراً أجرّ عباءتي خلفي كفارس انتصر في معركة. لكن هذه المرة، كان ثقل مختلف يضغط على صدري.

التفت إلى أسعد.

—انتظرني هنا.

—أنتظرك يا أستاذ. خذ وقتك.

نزلت من السيارة. مشيت نحو البوابة الحديدية الثقيلة. طرق معدني ثقيل. فتحت. وقفت في الدهليز البارد، أنتظر أن يأذن لي بالدخول.

مكتب استقبال السجن كان كما هو دائماً: رائحة مطهرات رخيصة تحاول جاهدة إخفاء رائحة العفن والبول القديم. مصابيح فلورسنت بيضاء تطنّ بملل، وتلقي بضوئها القاسي على وجوه الحاضرين فتجعلهم يبدون كجثث في مشرحة. جدران دهانها أصفر متقشر، وكراسي بلاستيكية زرقاء مصفوفة كجنود منهكين.

تقدمت إلى شباك الزجاج حيث كان السجان جالساً خلفه.

كان رجلاً في الستين من عمره، على أبواب التقاعد. وجهه منحوت بتجاعيد عميقة، ليست تجاعيد السنوات وحدها، بل تجاعيد صنعها هذا المكان. شعر رأسه أبيض بالكامل تقريباً، ولحيته بيضاء أيضاً، لكن العينين... العينان فيهما بقية حياة. عينان متعبتان، رأتا ما لا يريد أن يتذكره.

العم لزهر العربي.

دفعت إليه رخصة الاتصال بالمسجون، فأخذها يتصفحها ببطء متعمد، كأنه يريد أن يقول لي:

—هنا أنت لست الأستاذ المحامي، أنت مجرد زائر مثلك مثل غيرك.

ثم توقف.

قرأ الاسم. أعاد قراءته.

—كمال داغلي.

تغيرت ملامحه. تغير خفيف، سريع، كمن ابتلع شيئاً ساخناً. نظر إليّ من جديد. رأيت في عينيه شيئاً لم أتوقعه: شفقة؟ تحذير؟ لا أعرف. ثم قال بصوت منخفض:

—هذا الرجل... لا ينام.

تركت الأوراق على المنضدة. انتظرت.

—منذ أسبوعين، منذ جاؤوا به، لم أره يغمض عينيه. أجلسه في زنزانته، ساكت، ينظر إلى الجدار. لا ينام. والغريب...

توقف. عض شفته. بدا وكأنه يحارب رغبة في الكلام. لكن الكلمات نزلت منه كمن يبصق شيئاً ساماً:

– يشرب الماء. بكميات غريبة. نصف لتر، لتر، اثنين لتر. كأنه يصب الماء في بئر. المرة الأولى شفته يشرب

قلت له: أنت عطشان؟. نظر إليّ. ما جاوب. بس ابتسم. ابتسامة... الله لا يعيدها.

توقف. نظر إلى الوراء، إلى الممر الطويل الذي يقود إلى الزنازين.

—ثم... بدأ يكتب. على الجدران.

—يكتب ماذا؟

نظر إليّ. في عينيه شيء من الخوف. رجل على أبواب التقاعد، رأى في هذا السجن ما لم يره غيره، وهو خائف من محبوس؟

—حروف. أرقام. كتابة... لا أفهمها. ليست عربية. ليست فرنسية. ولا حتى ما نعرفه من لغات. كأنها... كأنها رموز.

توقف. أدار رأسه يميناً وشمالاً، كمن يتأكد أن لا أحد يسمع. ثم همس:

—أنا لا أعطي معلومات من داخل السجن. هذا لا يخصني. لكن... لكن أنا أريد أن تفهمني شيء. موكلك هذا... يبدو عليه...

أشار بإصبعه إلى رأسه.

—يبدو عليه الجنون يا أستاذ. خذ حذرك.

لم أعلق. قلت:

—أريد أن أراه.

نظر إليّ طويلاً. ثم تنهد.

—سأخصص لك غرفة الاجتماعات. فيها زجاج. السجان يكون وراه. هذا البروتوكول مع الملفات الخطيرة.

كانت غرفة الاجتماعات غرفة صغيرة، جدرانها بيضاء متسخة، وفي وسطها مكتب معدني رمادي. كرسيان من الخشب، أحدهما في جهة والآخر في الجهة المقابلة. على الجدار الخلفي، نافذة كبيرة من الزجاج المصفح، وخلفها كان السجان الشاب ذو الوجه الأشعث يجلس على كرسي مرتفع، يراقب الغرفة بعينين لا ترمشان.

جلست على أحد الكرسيين. وضعت مذكرتي على المكتب. انتظرت.

دقائق مرت كأنها دهور. ثم فتح الباب.

دخل كمال داغلي.

كان يرتدي الزي الرمادي للسجن، ويداه مكبلتان بسلاسل حديدية تصدر رنينًا خفيفًا مع كل خطوة. سجان آخر كان يقوده. أشار

إليه السجان أن يجلس على الكرسي المقابل لي. جلس. ثم فك السجان القيود عن معصميه، وأخرجها من الحلقة المثبتة في الأرض، وربطها بدلًا من ذلك بقضيب معدني جانبي تحت المقعد— بحيث تبقى يداه حرتين، لكنه مقيد من الخصر.

نظر إليّ السجان للحظة، ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

بقينا وحدنا. إلا من العيون التي تراقب من خلف الزجاج.

كمال لم يكن كما تخيلته. لم يكن وحشًا ذا أنياب، ولم يكن مجنونًا يهذي ويخرخر. كان رجلاً في الأربعين من عمره، لكنه بدا أصغر. وجهه كان دائريًا، ناعمًا، كوجه طفل لم يكتمل بعد. عيناه كانتا سوداوين، واسعتين، تلمعان في الضوء الخافت كأنهما تملكان نورهما الخاص.

جلس القرفصاء على الكرسي، ظهره مستندًا إلى ظهر المقعد الخشبي، ويداه الحرتان مستندتان على المكتب. نظر إليّ بهدوء.

هدوء تام. لا قلق، لا خوف، لا توتر. كان جالسًا كمن ينتظر قطارًا يعرف أنه سيأتي.

قلت:

—أنا المحامي الخاص بك. جئت لأتحدث معك.

نظر إليّ ببطء. عيناه السوداوان التقتا بعيني. شعرت للحظة أن هناك شيئاً يمر بيننا، شيء لا أستطيع تسميته. ثم ابتسم. ابتسامة صغيرة، هادئة، كأنه كان ينتظرني.

قال:

—أعرف من أنت.

صوته كان هادئاً. رزيناً. ليس فيه توتر، ليس فيه عداء. فقط... هدوء. هدوء من لا يشعر بالذنب. هدوء من يعرف أن ما فعله لم يكن خطأ.

فتحت مذكرتي. نظرت إلى الأسئلة التي كتبتها. ثم رفعت رأسي إليه.

لم يكن أكثر ما أزعجني في الملف هو الجروح.

كنت قد رأيت ما هو أسوأ في سنين عملي. رأيت جثثاً مزقتها الرصاص، وأجساداً أحرقتها النار، ووجوهاً تشوهت حتى صار التعرف عليها مستحيلاً. كنت أظن أنني منيع، أن لا شيء في هذا العالم يمكن أن يهزني بعد كل ما رأيت.

لكنني كنت مخطئاً.

الذي أزعجني... هو الغياب.

غياب أي أثر للمقاومة.

سبعة أطفال، سبعة أجساد صغيرة ممددة على الأرض في قبو مظلم، سبعة أرواح اختلست قبل أن تتعلم كيف تدافع عن نفسها. سبعة...

ولا خدش واحد.

ولا جرح دفاعي واحد.

ولا كدمة تحت الأظافر تشير إلى أن أحدهم حاول أن يدفع، أو يخدش، أو يهرب.

كانوا هناك. استلقوا. وماتوا.

كأنهم ناموا.

كأنهم وافقوا.

وهذا... هذا هو الذي جعلني أفتح الملف مرة بعد مرة، وأنا أعرف أنني سأجد نفس الصور، ونفس التفاصيل، ونفس الفراغ الذي لا يملأه أي تفسير قانوني.

عندما سألته عن ذلك، لم يبدُ عليه أنه فهم السؤال من الأصل.

كان يجلس أمامي بهدوء، يضع يديه على المكتب كما يضع طفل كفيه أمام معلمه.

قلت له:

—سبعة أطفال. في قبو واحد. في يوم واحد. لم يقاوم أحد. لماذا؟

نظر إليّ. نظرته كانت بطيئة، كأنه يقرأ شيئاً مكتوباً على وجهي. ثم قال بصوت هادئ، رتيب، كأنه يقرأ من ورقة:

—لم أؤذيهم.

صمت.

لم أعلق.

انتظرت.

في مثل هذه اللحظات، الصمت أفضل من أي سؤال. الصمت يملأ الغرفة، يضغط على الجدران، يجعل الطرف الآخر يشعر بالفراغ الذي تركه كلماته. الصمت يجبرهم على الكلام، على ملء الفراغ، على قول ما لا يريدون قوله.

تكلم هو.

قال إنه لم يذهب إليهم.

هم الذين جاؤوا.

في البداية، كان واحداً فقط.

ولد. اسمه ياسين.

رآه في الحديقة. كان يلعب وحده... أو يتظاهر أنه يلعب. كرة صغيرة، وأقدام تركلها في لا اتجاه، وعينان تبحثان عن شيء لا يوجد. طفل في التاسعة، شعره أسود مجعد، ضحكته عالية تملأ المكان قبل أن يفتح فمه.

اقترب منه. أو ربما اقترب منه ياسين، لا فرق. الأطفال لا يسألون عن الماضي. لا يسألون من أنت، ماذا تفعل هنا، لماذا تجلس وحيداً. يسألون فقط: هل تلعب؟

وكان كمال يلعب.

قال لي كمال بصوت ما زال هادئاً، لكن فيه نبرة لم أسمعها من قبل:

—كان عنده ضحكة عالية... تملأ المكان. كنت أجلس في الحديقة من بعيد، أشاهده يلعب وحده، أتساءل لماذا لا أحد معه. في يوم من الأيام، طارت الكرة من رجله، سقطت عند قدمي. التقطتها. نظر إليّ. لم يخف. قال: "هذي كرتك؟". قلت:

"لا، هذي كرتك". ضحك. ضحكته كانت عالية جداً لطفل في حجمه. قال: "تعال نلعب". قلت: "أنا كبير". قال: "ما يهم". ولعبت معه.

ثم سكت.

لثانية واحدة، تغير صوته. صار أخفض، أبطأ، كأنه يتكلم عن شيء لا يريد أن يتكلم عنه. ثم عاد كما كان. بارداً. هادئاً. رتيباً.

—بعد يومين، جاء ياسين بصديق. قال لي: "هذا صاحبي علي. بدو يلعب معنا". قلت: "أهلاً بك". بعدها بثلاثة أيام، جاء باثنين. وبعد أسبوع، صاروا خمسة. وبعد أسبوعين، صاروا سبعة.

وبعد شهر...

لم يعد كمال غريباً في الحديقة.

صار جزءاً منها.

كان يجلس معهم على الأرض، يحدثهم عن أشياء لا تتذكرها التفاصيل. كان يلعب الكرة معهم، يخسر عمداً أحياناً... ليفرحوا. كان يجلب لهم الحلويات، يعرف من يحب الشوكولاتة ومن يحب الفراولة. كان يمسح دموع من يقع، ويصلح كسر من يتشاجر.

كان يعطيهم ما لا يعطيه الكبار لأطفالهم: وقتاً. وانتباهاً. وصبراً.

قال:

—كانوا يحتاجون أحداً يسمعهم. آباؤهم مشغولون. أمهاتهم تعمل. الشارع ليس آمناً. كنت أنا الوحيد الذي كان يلعب معهم. كنت أنا الوحيد الذي كان يضحك معهم. كنت أنا الوحيد الذي كان يجلس معهم دون أن ينظر إلى ساعته كل خمس دقائق.

ثم أضاف بعد لحظة، بصوت كان أخفض من الهمس:

—وأنا كنت أحتاجهم.

لم أكتب هذه الجملة في مذكرتي. لم أستطع.

قلت له:

—حدثني عن ذلك اليوم. في القبو.

نظر إليّ. للحظة، رأيت شيئاً يتحرك في عينيه. ليس خوفاً، ولا ندمًا. كان شيئاً آخر. كان أشبه بالحنين.

قال:

- لعبة الشجعان.

صمت.

—كانت لعبتهم المفضلة. كنت أعصب أعينهم بقطعة قماش ناعمة. كانوا يجلسون في دائرة. كنت أمشي بينهم، ألمس أحدهم، فيصرخ. والباقون يتخمّنون من الذي صرخ. كانوا يحبونها. كانوا يتحدون بعضهم. ياسين كان الأفضل.

توقف. نظر إلى يديه المكبلتين.

—في ذلك اليوم، قلت لهم إن اللعبة ستكون في مكان جديد. مكان أفضل. في قبو الفيلا. قلت لهم إنه سيكون هناك قطط صغيرة بعد اللعبة. فرحوا. كانوا يضحكون. ركضوا أمامي.

قلت:

—كانوا سبعة.

—سبعة.

—في وقت واحد. في مكان واحد.

—في مكان واحد. في وقت واحد.

—كيف؟

نظر إليّ. ابتسم. ابتسامته الباردة.

—العصير.

—العصير؟

—عصير محلى. وضعت فيه ما يجعلهم نعسانين. هادئين. مسترخين. شربوه وهم يضحكون. كانوا يثقون بي.

توقف.

—نزلنا إلى القبو. قلت لهم:

اجلسوا في دائرة. سأغمض أعينكم. سأخرج لأحضر القطط. لا تفتحوا أعينكم. إن فتحتم، تخسرون. جلسوا. أغمضت أعينهم.

ربطت أعينهم بالعصبة. كانوا هادئين. مسترخين. العصير بدأ يأخذ مفعوله. كانوا يهمسون بكلمات لا تكتمل. ثم سكتوا.

قلت:

—ثم ماذا؟

نظر إليّ طويلاً. ثم قال:

—ثم بدأت اللعبة.

قال:

—كنت أمشي بينهم. خطواتي لا تصدر صوتاً على الأرض الخرسانية. كانوا مغمضي العيون، جالسين في دائرة، ينتظرون الصوت. الصوت الذي اعتادوا عليه.

قلت:

—أي صوت؟

—صوت الصراخ. في اللعبة العادية، كنت ألمس أحدهم، فيصرخ. والباقون يتخمّنون. كانوا يحبون ذلك. كانوا يتنافسون.

توقف.

—في ذلك اليوم... قررت أن ألعب اللعبة بطريقة مختلفة.

قلت:

—مختلفة كيف؟

نظر إليّ. عيناه كانتا زجاجيتين.

—قررت أن يكون الصرخة... حقيقية.

صمت طويل.

—اخترت واحداً. وقفت خلفه. أخرجت السكين. كانت حادة. نظيفة. وضعتها على رقبته. ثم...

توقف. تنفس بعمق.

—ثم قطعتها.

كان صوته هادئاً. رتيباً. كأنه يصف كيف يقطع الخبز.

—كان هناك صوت. ليس صرخة فقط. كان هناك غرغرة. كان هناك ارتطام الجسد بالأرض. كان هناك قطرات دم تسقط على الخرسانة. كان هناك...

توقف.

—وكان الباقون يسمعون.

قلت:

—وماذا كانوا يفعلون؟

نظر إليّ. ابتسم.

—كانوا يتخمّنون.

—يتخمّنون؟

—طبعاً. كانوا يعتقدون أنها لا تزال لعبة. يسمعون الصوت، فيقولون: "هذا صوت علي". "هذا صوت سارة". يضحكون. يخطئون. يصححون. يتجادلون. كانوا يعتقدون أن من صرخ هو مجرد واحد من المجموعة، أنه سيعود إلى الدائرة بعد أن ينتهي دوره.

صمت.

—كانوا يعتقدون أن من يخرج من الدائرة... يذهب ليرى القطط.

قلت:

—وهم لا يعرفون...

—لا. لم يعرفوا شيئاً. كانوا مغمضي العيون. كانوا تحت تأثير العصير. كانوا يعتقدون أنهم ما زالوا يلعبون لعبة الشجعان. فقط لعبة.

قلت:

—والجسد؟ الدم؟

—كنت أنقله خارج الدائرة. أنظف الدم. أعود. وأختار واحداً آخر.

صمت طويل.

قلت:

—كم استغرق الأمر؟

—لا أعرف. ساعة. ربما أكثر. كنت هادئاً. لم أكن في عجلة. كل واحد كان له وقته. كنت أريد أن تكون اللعبة... نظيفة.

قلت:

—سبعة أطفال. في قبو واحد. في يوم واحد. وهم يعتقدون أنهم يلعبون.

—نعم.

—ولم يشك أحد؟

توقف. نظر إليّ. في عينيه شيء لم أره من قبل.

—ياسين... شك.

—ياسين؟

—كان الأذكى. كان يسمع الأصوات. يسمع الجسد يقع. يسمع الدم. يسمع خطواتي وأنا أنقل الجثة. يسمع الماء وأنا أنظف. في البداية، كان يتخمّن مع الباقين. كان يقول: "هذا صوت سارة". "هذا صوت علي". لكن بعد الثالث... سكت.

ـــماذا فعل؟

ـــكان جالساً في الدائرة. عيناه مغمضتان. يداه على ركبتيه. كان يسمع. فقط يسمع. لم يعد يتخمّن. كان يعرف.

ـــكيف عرف؟

نظر إليّ. نظرته كانت ثقيلة.

ـــقال لي بعد ذلك. قال: عم كمال... الأصوات اللي كنت أسمعها... هاي كانت أصواتهم؟". قلت: "ما تفهمش". قال: "عم كمال... هم ما راحوا، صح؟ هم ماتوا، صح؟". ما جاوبت. قال: عم كمال... أنت قتلتهم؟."

ـــوماذا قلت له؟

صمت طويلاً. نظر إلى يديه. إلى يديه اللتين كانتا تمسكان السكين. إلى يديه اللتين كانتا تمسكان ياسين.

ـــقلت له: أنا خلصتهم.

ـــــوماذا قال؟

رفع رأسه. نظر إليّ. في عينيه شيء يشبه الدموع. شيء يشبه الفراغ.

ـــــقال: عم كمال... أنا بدي تخلصني كمان.

توقفت.

ـــــقال ذلك؟ طفل في الثانية عشرة قال لك إنه يريد أن تخلصه؟

ـــــقالها. كان يبتسم. كان يعرف أنها ليست لعبة. كان يعرف أنه لن يرى القطط. كان يعرف أنه لن يخرج من الدائرة. لكنه قال: "أنا بدي أروح عندهم. بدي أشوفهم". قلت له: "رح تشوفهم". قال: "أنا خايف". قلت: "لا تخف". قال: "أنا شجاع؟". قلت: "أنت أشجع واحد". ابتسم. أغمض عينيه. وقال:

خلصني يا عم كمال.

صمت.

ثم قال بصوت كان أخفض من الهمس:

—وخلصته.

سألته:

—متى بدأ كل هذا؟ متى بدأت تفكر فيهم بهذه الطريقة؟

رفع رأسه. عيناه كانتا زجاجيتين تنظران إلى شيء ليس في الغرفة.

—في البداية لم أكن أحبهم. كانوا مجرد أطفال. مزعجين. صاخبين. كنت أجلس في الحديقة لأكون وحدي، لكنهم كانوا يأتون يركضون حولي، يصرخون، يسألون أسئلة لا تنتهي.

توقف.

ـــلكن ياسين كان مختلفاً. كان يضحك. ضحكته كانت عالية جداً لطفل في حجمه. كان يأتي إليّ كل يوم، يجلس، لا يقول شيئاً. فقط يجلس. كأنه يقول: أنا هنا. أنا لا أريد شيئاً منك. فقط أنا هنا.

صمت طويلاً.

ـــذات يوم، كان يمطر. بقيت في الحديقة رغم المطر. جاء ياسين يحمل مظلة كبيرة. جلس بجانبي. رفع المظلة فوق رأسي وقال: عم كمال، لا تبلل.

توقف. صوته تغير. صار أخفض. أبطأ.

ـــفي تلك اللحظة، شعرت بشيء لم أشعر به منذ كنت طفلاً. شعرت بأنني مرئي. بأن أحداً يراني. بأن أحداً...

لم يكمل الجملة.

سألته:

—متى بدأت تسمع الأصوات في رأسك؟

نظر إليّ كأنه تعجب من سؤالي. وكأنه شعر أنني أعرف ما بداخله. لكنه لم يجب مباشرة.

—بدأت عندما أحببتهم.

—الأصوات قالت ماذا؟

—قالت: يجب أن تطهرهم. الآن يجب أن ترسلهم إلى المكان الذي لا أحد يؤذيهم فيه. الآن... الآن.

أغمض عينيه.

—ياسين كان أول من أحببتهم. وكان آخر من ذبحت.

فتح عينيه. نظر إليّ. ابتسم ابتسامة جعلت جلدي يقشعر.

—تحب شيئاً فتقتله؟

لم أستطع الجلوس أكثر.

وقفت. جمعت أوراقي. كانت يدي ترتجف. لم أكن أعرف هل هو الغضب أم الخوف أم شيء آخر لا أريد أن أعرفه.

قبل أن أغادر، نظر إليّ كمال. قال بصوت هادئ، بارد، كأنه لم يقل شيئاً مما قال:

—أنت تسأل عن الجروح. تسأل عن الدم. تسأل عن لماذا لم يقاوموا. لكنك لا تسأل عن الشيء الوحيد الذي يهم.

قلت:

—وما هو؟

ابتسم. ابتسامته الباردة.

—هل كانوا سعداء في النهاية؟

لم أجب.

خرجت من الغرفة. مشيت في الممر الطويل. كانت خطواتي تتعالى على البلاط البارد. وصلت إلى مكتب الاستقبال.

العم لزهر كان لا يزال هناك. نظر إليّ. رأى وجهي. لم يسأل.

قلت:

—شكراً.

هز رأسه. قال:

—قلت لك... خذ حذرك.

خرجت من السجن. الهواء البارد ضرب وجهي كصفعة. مشيت نحو السيارة. أسعد كان واقفاً بجانبها.

نظر إليّ. قال:

—كيف كان؟

لم أجب. فتح الباب. جلست. أغمضت عينيّ.

وسمعت ضحكة طفل.

عالية... تملأ المكان.

فتحت عينيّ.

أسعد كان ينظر إليّ من مرآة الرؤية الخلفية. قال:

—أستاذ... لونك متغير. تصير خير؟

نظرت إلى النافذة. إلى نخيل بسكرة يمر بجانبنا كجنود صامدين.

قلت:

—انطلق.

انطلقنا.

وفي الطريق، لم أتحدث. كنت أسمع في رأسي صوت كمال يقول:

- هل كانوا سعداء في النهاية؟

لم أكن أعرف الجواب.

ربما لن أعرفه أبداً.

الفصل الرابع: ليلة الألغاز

الغائبون لا يموتون... إنهم يتركون فينا أسئلةً حيّة، تكبر كلما تأخر الجواب.

دخلنا الجناح التاسع من فندق الزيبان عند الثامنة مساءً. كنا ثلاثة: أنا، وتازو، والدكتور سامي. كنا معًا طوال الطريق من المكتب إلى هنا، في سيارة أبي أسعد التي يقودها بصخبه المعتاد، بين ضحكات تازو وصمت سامي الثقيل. دخلنا معًا، كجسد واحد له ثلاث رؤوس، أو كقبضة لا تنفك.

الجناح ليس غريبًا علينا. نحن الثلاثة نعرف زواياه كما يعرف الأعمى دروب بيته. نعرف صرير الباب الخفيف حين يُفتح، ووهن الستائر الثقيلة التي لا تحجب ضوء المدينة بالكامل، ووهج المصابيح الجانبية الذي يرسم ظلالاً طويلة على الجدران.

نعرف كل شيء هنا، وكأن المكان جزء من ذاكرتنا، أو ربما ذاكرتنا جزء منه.

الغرفة فسيحة، أثاثها داكن، وطاولة خشبية كبيرة تحتل الوسط. على أحد الجدران، نافذتان عريضتان تطلان على نخيل بسكرة الممتدة كجنود صامدين في العتمة. التلفاز صامت، لكن شاشته تعكس أضواء المدينة بلون بارد. في الزاوية البعيدة، أريكة جلدية قديمة، انحنى ظهرها مع السنين كما تنحني ظهورنا نحن.

رميت المفاتيح على الطاولة، فوق الملف رقم 47 الذي وضعته هناك سابقًا. نظرت إليه للحظة، ثم حولت نظري إلى النافذة. لم أشأ أن أفتحه مجددًا. كنت أعرف ما فيه. كنت أعرف أن كل صورة، وكل كلمة، وكل رمز سيعيدني إلى ذلك القبو، إلى أجساد الأطفال الممددة في دائرة، إلى الدم الذي رسم خطوطًا لا تشبه أي خط عرفته.

تازو سبقتني إلى الأريكة، ارتمت عليها بارتياح مبالغ فيه، وأسندت رأسها إلى الخلف. وضعت حقيبتها الصغيرة بجانبها، وأطلقت زفيرًا طويلًا كمن ألقى عن كاهله همًّا ثقيلًا. وجهها في ضوء المدينة البارد بدا أكثر نضجًا، وأكثر هدوءًا مما اعتدت. كانت تعرف لماذا جئنا.

أما الدكتور سامي، فوقف لحظة في وسط الغرفة. نظارته الطبية انحرفت قليلاً على أنفه كعادته. رفع رأسه إلى السقف، ثم دار ببطء يتأمل الجدران، كأنه يقرأ شيئًا مكتوبًا عليها لا نراه نحن. ثم مد يده إلى جيب قميصه، أخرج سيجارة، وضعها في فمه دون أن يشعلها.

جلست على الكرسي القريب من النافذة. أشعلت سيجارتي. نظرت إليهما.

تازو على الأريكة، جسدها نصف منبطح، ورأسها إلى الخلف، وعيناها مغمضتان. سامي واقف، ثم جلس ببطء على الكرسي المقابل لي، وضع حقيبته الجلدية البالية بجانبه، وأخرج سيجارة أخرى من جيبه، أدارها بين أصابعه، ثم أعادها إلى شفتيه.

صمت طويل ساد الغرفة. ليس صمتًا ثقيلًا، لكنه كان كافيًا ليجعلنا نشعر أننا لسنا هنا للضحك هذه المرة.

قال سامي أخيرًا، دون أن ينظر إلى أحد:

— المكان نفسه. الستائر نفسها. حتى رائحة القهوة القديمة ما زالت هنا.

فتحت تازو عينيها، أدارت رأسها ببطء، ونظرت إلى سامي:

— اشتقت لهذا المكان.

ثم التفتت إليّ:

— وأنت؟

نظرت إلى النافذة. إلى نخيل بسكرة خارجها. إلى الظلام الذي كان يبتلع القمم البعيدة. قلت بعد لحظة قصيرة:

— أنا لم أغادره أبدًا.

نظرت إليّ تازو طويلًا، ثم أعادت عينيها إلى السقف.

قال سامي بصوته الهادئ:

— الأماكن التي تحمل ذكريات لا تتركنا، حتى لو تركناها. خصوصًا إذا كانت الذكريات ليست نظيفة.

ساد صمت آخر. لكنه لم يكن صمت فراغ. كان صمت انتظار. كنا ننتظر شيئًا. كنا نعرف أننا ننتظر.

تازو بدأت تحكي قصة، لا أتذكر تفاصيلها، كانت عن امرأة تعرفها، أو عن حادث في السوق، أو ربما عن ثوب اشترته ولم يعجبها. صوتها كان يملأ الغرفة، يخفف من ثقل الهواء. وسامي

يقاطعها بين الحين والآخر ليصحح تفاصيل لم يطلبها أحد، فيضحكان، وأضحك معهما.

لكن الضحك لم يكن كاملًا.

كانت هناك مسافة بيننا وبين البهجة. وكأن الغرفة بأكملها تنتظر شيئًا. تنتظر قدومه.

نظرت إلى ساعتي. العاشرة إلا ربعًا.

كان أبو أسعد قد ذهب ليحضر كرم. كان يجب أن يعودا منذ وقت. بدأت أتساءل: هل تأخرا؟ أم أن الوقت يمضي ببطء هنا وحده؟

ثم سمعنا طرقًا على الباب.

لم يكن طرقًا خفيفًا مترددًا. كان واضحًا، واثقًا، كأن من في الخارج يعرف أن المكان لنا، ويعرف أننا ننتظره.

اعتدلت تازو في جلستها. أخرج سامي السيجارة من فمه ووضعها على الطاولة. نظر كلانا نحو الباب.

نهضت. تقدمت. فتحت الباب.

دخل أبو أسعد أولًا، بابتسامته العريضة، وصوته الذي يملأ المكان قبل جسده:

— أهلاً بكم. جئت لكم بالرجل الذي يفك السحر.

ابتسمت تازو من الأريكة:

— أخيرًا.

وخلف أبو أسعد، دخل كرم.

كان كرم هادئًا على عكس أبي أسعد تمامًا. شاب في أواخر العشرين، شعره طويل ينسدل على كتفيه، ونظارتان دائريتان تشبهان نظارات القدامى. وجهه نحيل، وملامحه حادة، لكن عينيه كانتا الأكثر حضورًا. عينان داكنتان، عميقتان، تنظران إلى الأشياء كأنها ترى ما وراءها.

لم يبتسم. لم يقل شيئًا. دخل ببطء، أغلق الباب خلفه، ثم وقف للحظة في منتصف الغرفة. نظرته كانت سريعة، تتجول في التفاصيل قبل الوجوه: الستائر، الطاولة، الملف، الأضواء. كأنه لا يدخل غرفة، بل يقرأها. كأنه لا يرى ما نراه نحن، بل يرى ما لا نراه.

ثم نظر إلى الملف. مباشرة. كأن عينيه وجدتا ما تبحثان عنه منذ لحظة الدخول.

تقدم نحو الطاولة. وقف أمام الملف للحظة. لم يلمسه. كان ينظر إليه كما ينظر الطبيب إلى جرح قديم. ثم مد يده، فتح الغلاف، وبدأ يتصفح الصور والأوراق.

صمته كان أثقل من أي كلام. صوت تنفسه وحده كان يملأ الغرفة. وكأن الكلمات كلها تنتظر أن ينطق بها هو.

ثم رفع رأسه.

صوته حين انبثق كان حادًا، لكنه ليس مرتفعًا. كان كمن يقرأ حكمًا لا يقبل النقاش:

— سبعة أطفال. أربع قطط سوداء. دوائر متداخلة. رموز غريبة.

توقف. نظر إليّ.

— من أين حصلت على هذه الصور؟

أجبته بهدوء، وأنا أحاول تهدئة ارتجاف لم أكن أعرف مصدره:

— مسرح جريمة. أنا محامي المتهم. أريد أن أفهم ما تعنيه هذه الرموز.

نظر إليّ طويلًا. عيناه كانت تختبرني، تبحث عن شيء في داخلي لا أعرفه أنا نفسي. ثم أخرج من حقيبته الجلدية كتابًا قديمًا.

الغلاف من جلد أسود متآكل، كأنه جلد شجرة ماتت منذ قرون. الصفحات صفراء، حافتها مهترئة. وضعه على الطاولة بهدوء، كمن يضع مفتاحًا أمام قفل لم يفتح منذ زمن.

سأل، وصوته خافت أجش لكنه لا يخلو من هيبة:

— هل تعرفون ما هذا؟

التفتت تازو إليّ بعينين متسعتين. قلت:

— عنوانه مكتوب. "شمس المعارف الكبرى". سمعت عنه. خطير.

ابتسم كرم ابتسامة صفراء بلا مرح:

— خطير؟ هذا وصف خفيف. هذا الكتاب هو خلاصة فن البوني. وخطره ليس في الكلمات، بل في القوة التي يحملها. مؤلفه، أحمد بن علي البوني، لم يكن مجرد صوفي. بل ساحر. ساحر عظيم.

فتح الكتاب بحنان غريب، كأنه يفتح صندوق ذكريات قديمة. وصل إلى صفحة مليئة بالرسوم: دوائر متداخلة، خطوط متقاطعة، رموز غريبة.

— انظروا إلى هذا. هذه البرهتية. قسم معوَّل عليه من قديم الزمان. سلسلة طلاسم تستخدم لاستدعاء الأرواح العلوية والسفلية. العلوية هم ما يسميه السحرة "الروحانيون"، وهم في الواقع... الجن.

أخذ نفسًا طويلًا، ثم أشار بإصبعه إلى رسم محدد:

— سبع دوائر. الرقم سبعة محوري: سبع سماوات، سبع أراضٍ، سبعة أيام، سبعة كواكب. كل شيء مرتبط بهذا الرقم. وعندما تريد طقسًا عظيمًا، تحتاج سبع قرابين... سبع ذبائح.

توقف. رفع رأسه نحونا ببطء:

— وهنا... سبعة أطفال.

شعرت بقشعريرة تتسلل إلى عمودي الفقري. تازو شهقت بصوت مكتوم، مزلزلة من وقع الكلام.

تابع كرم، صوته أصبح همسًا كأن الكلمات نفسها تخشى الانبعاث:

— الأطفال سبعة، والقطط السوداء الأربعة... البوني يصفها كحراس للعتبات. خطوط الدم المرسومة بعناية... كل شيء له معنى. كل نقطة ومركز.

أخذنا نتنقل بين الصور والرسوم، وكل كلمة يلفظها كرم كانت تكشف طبقة أخرى من الغموض. قلت بصوت مرتجف:

— والمسحوق الأبيض الذي وجدناه؟

نظر إليّ طويلًا، ثم قال بهدوء قاتل:

— لبان الذكر، الكبريت، ورماد بشري. خليط قديم. من يستخدمه يربط الموتى بالأحياء. الجسر يحتاج حراس، والأطفال السبعة كانوا الحراس. والقاتل... كان الكاهن.

صرخت تازو بصوت منخفض:

— كمال؟ هذا الرجل... المريض نفسيًا؟

هز كرم رأسه ببطء:

— كمال قد يكون الأداة. اليد التي نفذت. لكن من رسم الخريطة؟ من حدد الزمان والمكان والضحايا؟ شخص آخر. شخص يفهم هذه اللغة. يقرأ النجوم. يتقن حساب الأوقات.

صمتنا. الغرفة، رغم ضوء المدينة المتسلل، بدت كأنها تصبح أعمق وأقسى. كل شيء حولنا صامت... لكن كل شيء يصرخ.

أخذت أتنفس ببطء، أراقب تازو، كرم، والدكتور سامي. شعرت فجأة بأننا لسنا مجرد مراقبين. كنا جزءًا من الطقس. من اللعبة التي بدأت قبل عشرين سنة. من الخاتم الذي لا يفارق إصبعي. ومن الأسرار التي لم يبح بها البوني لمن لا يستحقها.

أخطر الأسرار ليست تلك التي نخفيها عن الآخرين، بل تلك التي نخفيها عن أنفسنا.*

بينما كان كرم يدرس الرموز والدوائر من صور الجريمة، جلست أنا وتازو نراقب كل حركة وكل حرف. وعقلي يلتف حول الخاتم في إصبعي. الرموز على الخاتم تتشابه مع تلك التي على الأرض. وكل تفصيل فيه يبدو وكأنه جزء من الطقس نفسه.

لم تكن هناك فرصة أفضل من هذه، بحضور كرم، لفهم سر الخاتم. لكنني ترددت. لم أكن مستعدًا بعد لإخباره. فالخاتم كان سرّي. سر أخفيه حتى عن نفسي. وأحاول مرارًا تجاهله، كما لو كان قطعة من جسدي لا أريد أن أعترف بها.

تازو ارتجفت على الأريكة. عينها لا تفارق إصبعي. ثم همست بصوت خافت:

— وهذا الخاتم؟

وأشارت إليه.

رفع كرم رأسه نحوّنا. عيناه تخترقان الظلام وكأنهما ترى ما نخفيه. للحظة شعرت ببريق غريب في نظرته. ثم قال بهدوءٍ ثقيل:

— أرني إياه.

ترددت قليلاً. ثم خلعت الخاتم وناولته إياه.

أخذ كرم الخاتم بين يديه كما لو كان يحمل قطعة من عالم آخر. نظر إليه طويلاً. ثم تحدث بصوت مليء بالرهبة، وكأن الكلمات نفسها تتحسس المكان قبل أن تنطق:

— هذا... هذا هو خاتم البرهتية. البوني يتحدث عنه. يسميه "العهد القديم"، "الميثاق العظيم". من يلبسه، تخضع له الأرواح العلوية والسفلية. لا يعصيه جني ولا عفريت. إنه مفتاح العالم الآخر.

توقف. رفع عينيه إليّ.

— من أين حصلت عليه؟

ارتجف جسدي من البرد. تسلّل شعور بالخطر إلى عظامي. التفت إلى تازو، كانت شاحبة كالميت، عيناها تراقب كل حركة وكل نفس.

تمتمت بصوت متقطع:

— لا أعرف. لا أذكر متى ارتديته. إنه معي منذ سنوات... ربما منذ عشرين سنة.

صمت كرم طويلًا، كأنه يزن الكلمات في ميزان الزمن. ثم رفع رأسه وأطالعنا بعينين خافتتين:

— إذاً... الطقس بدأ قبل عشرين سنة. وأنت... كنت جزءًا منه منذ البداية.

جلس سامي على حافة الطاولة. السيجارة بين أصابعه. عيناه متقاطعتان مع صفحة الكتاب. صوته هادئ لكنه مشحون بالريبة:

— كرم... أعتذر، لكن كل هذا يبدو لي مجرد خرافات. دوائر، رموز، سبعة أطفال... كل هذه الأشياء لا تثبت شيئًا. هذه الطلاسم لا تعني شيئًا أمام القانون. ربما يكون كل ما في الملف 47 مجرد هلوسات قاتل مجنون.

رفع كرم رأسه ببطء. نظراته تمر عبر الغرفة وكأنها تزيل كل الأوهام:

— سامي، أنت تفكر فقط بالعقلانية. تبحث عن دليل ملموس، شيء يمكنك لمسه ووضعه على الطاولة أمام القاضي. لكن العالم لا يُقاس بعينيك فقط. هناك أفعال تحدث، وأثر يترك، حتى لو لم تُسجّل في محاضر الشرطة.

أزاح سامي السيجارة من فمه. أنفاسه تتشابك مع صوت قلبه الذي بدأ يعلو قليلًا:

— أفهم ذلك. لكن ما الفائدة؟ إذا لم نتمكن من إثبات أي شيء، هذه الطلاسم ستضلّل العدالة أكثر مما تساعدها. أليست مجرد حيل قاتل لجعل نفسه يبدو أعظم مما هو؟

ابتسم كرم ابتسامة حزينة. نبرة صوته منخفضة كأنها همس من عصور أخرى:

— ليس الهدف المحاكمة، يا سامي. الهدف هو معرفة ما حدث. ما تركه القاتل وراءه. كيف جُهّز الطقس. كيف وُضعت الدوائر والرموز. حتى لو رفضت عيون الناس رؤيتها. الطلاسم تُظهر الطريق. ليست للإقناع أو الإثبات. بل لفهم القوى التي تحرك هذه الأحداث.

ارتجف سامي قليلاً. صوته أصبح أكثر حدة:

— إذًا أنت تقول إننا أمام قوة لا يمكننا رؤيتها، لا يمكننا لمسها، لكنها تتحرك؟ هل نحن بصدد سحر؟

نظر كرم إلى الصور والدوائر، ثم إلى سامي. عيناه مليئتان بصرامة غريبة:

— نعم. قوة. أو ما يشبهها. لا يحتاج المرء أن يؤمن بالسحر ليكون ضحية له. كل الطقوس، كل الدماء، كل الرموز على الأرض، هي دليل على ما حدث بالفعل. رغم أن المحكمة لا تستطيع اعتباره. أنت ترى القاتل. لكن الطقس أكبر منه بكثير.

وأنت تعرف... بعض الأسرار لا يمكن محاكمتها. لكنها تهدد من يعرفها.

جلس سامي صامتًا. ينظر إلى الخاتم في يدي. ثم إلى كرم. ثم إلى تازو. وكأن كل شيء في الغرفة أصبح أعمق وأكثر ظلمة. صوت قلبه، ونبرة صوته الداخلي، كل شيء كان يردد نفس الحقيقة المخيفة: نحن لسنا فقط مراقبين. نحن جزء من اللعبة.

كانت الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق ليلاً في الجناح التاسع من فندق الزيبان بسكرة.

عاصفة صحراوية تضرب النوافذ بعنف. الستائر تتلوى كأشباح تحاول الاقتحام. داخل الغرفة الغارقة في ضوء باهت، جلس كرم ككاهن يحاكم التاريخ. وضع كتاب *شمس المعارف الكبرى* في المنتصف، ونثر فوقه مسحوقًا من الكبريت ولبان الذكر. فانبعثت رائحة نفاذة تشبه رائحة "أبو منذر" في ليلتنا الأولى.

الخاتم في إصبعي كان ينبض بهياج غير مسبوق. يتوهج بلون أحمر قانٍ طابق تمامًا رموز الدم في قبو الأطفال السبعة.
أمسك كرم بيدي المرتجفة. بدأت ملامحه تتغير. صار صوته أجشّ كأنه آتٍ من بئر سحيق.

ثم أغمض عينيه.

تنفس بعمق ثلاث مرات، متتابعات. وكأنه يعدّ نفسه للنزول إلى قاع لا يعرف العودة. رفع يديه إلى مستوى صدره، أصابعه مشبوكة كأنها تمسك بخيط غير مرئي. ثم بدأ يهمس بكلمات لا أعرفها، لكنها كانت تتصاعد تدريجًا من أعماق حلقه:

- برهتيةٍ.. كريرٍ.. تاتليهٍ..

مع كل مقطع، كان يضغط بأصابعه بقوة أكبر. وكأنه يطبع الكلمات على الهواء. جسده بدأ يتمايل بخشوع مرعب، تمايلًا دائريًا بطيئًا. كأنه يدور في فلك مغناطيسي لا يراه أحد سواه. عرقه تصبب على جبينه، لكنه لم يمسحه. بل ترك قطراته تتسلل إلى عينيه دون أن يرمش.

–أرطيحٍ.. بيطارٍ.. طلطلٍ..

صوته لم يعد همسًا. تحول إلى هدير عميق يخرج من صدره كأنه زئير بعيد. النظارات الدائرية على وجهه كانت تعكس وميض الشموع فتظهر كعينين ثالثتين تراقبان العالم الآخر.

فجأة، رفع ذراعه اليمنى عاليًا، وصرخ:

— باسم الميثاق العظيم.. اخرج من اللحم الذي لم يعد وعاءً لك. انفصل عن اللسان الذي قرر الحقيقة!

مع الصرخة، سكب النار فوق المسحوق. ألسنة اللهب اندلعت فجأة، زرقاء في البداية ثم تحولت إلى برتقالية متوحشة.

شعرت بتمزق في عظام إصبعي الصغرى. وكأن الخاتم يغرس أنيابه المعدنية ليتشبث بدمي. صرخت بألم:

— أنا لست "اللسان" يا أبا منذر!

وفجأة، انزلق الخاتم. سقط في الوعاء النحاسي المشتعل. وما إن لامست النار معدنه حتى انبعث منه صرير حاد يشبه استغاثة روح محبوسة. توهج الخاتم بضياء مرعب، ثم بدأ يحترق ويتحلّل. محوّلاً الهواء إلى سحابة من الدخان الأسود الكثيف.

في تلك اللحظة بالذات، انقطعت الكهرباء.

الظلام لم يحلّ تدريجيًا. بل ابتلع الغرفة دفعة واحدة، كأن يدًا عملاقة أغلقت كل منافذ الضوء. حتى لهيب الشموع انطفأ في لحظة واحدة. تاركًا إيانا في سواد كثيف، ثقيل، له وزن يضغط على الصدور.

لم نعد نرى شيئًا. لا الأيدي التي أمامنا، ولا ملامح من يجلس إلى جانبنا.

في العتمة، سمعت أنفاس تازو المتقطعة. وكأنها تحاول حبس صرخة. ثم سمعت حركة خفيفة، حفيف ملابس. ظننت أنها تحاول الاقتراب مني. لكن صوت كرم جاء حاسمًا من وسط الظلمة:

— لا تتحركوا. لا أحد يتحرك. العهد ينكسر، والظلال غاضبة.

صمت.

ثم شعرت ببرادة تخترق نخاعي. وبأنفاس ثقيلة تقف خلفي تمامًا. شممت رائحة التراب المتعفن تملأ المكان. خُيِّل إلي أن سبع عيون صغيرة تراقبنا من زوايا الغرفة. تنتظر قربانًا لن يأتي.

أبو أسعد، الذي كان واقفًا في الزاوية طوال الوقت، تمتم بصوت خفيض لم أعتد سماعه منه:

— الله يحفظنا.. الله يرحمنا..

صوته كان يرتجف. الرجل الذي رأيته في أصعب اللحظات لا يتزعزع، كان الآن يردد آيات من القرآن بصوت لا يكاد يُسمع. كطفل يخاف من وحش تحت السرير.

أما الدكتور سامي، فلم أسمع منه حرفًا واحدًا. فقط حركة جلوسه تغيرت. شعرت بخشخشة ملابسه وكأنه انكمش على نفسه. صار أصغر. منطقه الفلسفي الذي لا يتزعزع في العادة، ذاك الذي يفسر كل ظاهرة بتفسير مادي، يبدو أنه تخلى عنه تمامًا في تلك الثواني.

ثوانٍ مرت كأنها دهور.

ثم عادت الكهرباء بصدمة ضوئية خاطفة. الضوء لم يتسلل بل انفجر كقنبلة بيضاء. أجبرت الجميع على إغماض أعينهم للحظات.

عندما فتحت عيني، رأيت المشهد الذي سيبقى محفورًا في ذاكرتي:

الغرفة خالية. الستائر هامدة. لم يعد في الوعاء النحاسي سوى رماد رمادي بارد. أما الخاتم فقد تلاشى تمامًا. تاركًا خلفه ندبة شاحبة بيضاء في إصبعي. كأن الجلد هناك لم يولد بعد.

ثم نظرت إلى من حولي.

تازو كانت شاحبة كالميت. لم تكن ترتجف، بل كانت متجمدة. عيناها مفتوحتان على اتساعهما، تنظران إلى نقطة فارغة في الجدار. شفتاها ترتجفان بخفة، وكأنها تهم بالكلام لكن الكلمات

عالقة في حنجرتها. ظهرها مقوس إلى الخلف، يديها مشبوكتان على صدرها كأنها تحمي قلبها من شيء لا يزال في الغرفة.

الدكتور سامي، ذاك الرجل العقلاني الذي لا يؤمن إلا بما تثبته المعادلات، كان جالسًا على الأرض. وليس على الكرسي الذي كان يجلس عليه قبل انقطاع الكهرباء. نظارته الطبية انحرفت على وجهه، ولم يعدلها. كان يحدق في الوعاء النحاسي بريبة لم يكسرها منطقه الفلسفي. عيناه ترمشان بسرعة غير طبيعية. وكأنه يحاول التأكد مما رآه. أو ربما يحاول إقناع نفسه بأنه لم يره.

أما أبو أسعد، فقد كان لا يزال واقفًا في الزاوية نفسها. لكن وجهه كان شاحبًا بشكل لم أره عليه من قبل. لحيته الكثيفة كانت ترتجف. كان يمسح عرقه بكم قميصه، لكن يديه كانتا ترتجفان لدرجة أنه بالكاد يستطيع التحكم بهما. نظر إليّ وقال بصوت بحة:

— انتهى. الحمد لله. انتهى.

ثم أدار وجهه عني بسرعة. وكأنه يخجل من أن أراه على هذه الحال.

أما أنا، فقد شعرت بخفة موحشة. لقد استعدت روحي. لكنني أدركت الحقيقة البشعة: لقد حطمت الربط الذي كان يربطني بعقد أبو منذر.

****

الفصل الخامس: حلم في زمن الجريمة

لا تسألوني عما رأيت. فالأحلام لا تُروى. الأحلام تُعاش، ثم تموت مع من يعيشها.

نمت أخيرًا.

بعد ليلتين من الأرق، بعد أن قرأت الملف مرارًا حتى صارت صور الجثث مرايا لعيني، بعد أن سمعت صوت كمال يقول :

–كانوا سعداء في النهاية؟

مئات المرات في رأسي، بعد أن نظرت إلى الخاتم في إصبعي حتى ظننت أن المعدن ينبض كقلب ثانٍ في جسدي—نمت.

لم يكن النوم راحة. كان سقوطًا.

كأن الأرض انفتحت تحت كرسيي في الجناح الثامن، وكأن الجدران تلاشت، وكأن الضوء الذي كان يضيء مصابيح الفلورسنت البيضاء انقلب فجأة إلى ظلام كثيف له رائحة.

رائحة تراب مبلل. ورائحة دم ليس أحمر. ورائحة قطط.

وجدت نفسي في القبو.

لم أكن قد رأيته من قبل، لكنني عرفته. الجدران خرسانية، رطبة، عليها كتابة لا تُقرأ. حروف تتشابك كأفعى تبتلع ذيلها. أرقام لا تبدأ من واحد. دوائر غير مكتملة، تنتظر شيئًا يسد فراغها.

الأرض كانت باردة تحت قدمي. حافي القدمين. لم أكن أتذكر متى خلعت حذائي.

في وسط القبو، دائرة.

دائرة من الضوء؟ لا. دائرة من لا شيء. دائرة مرسومة بحدود لا تُرى لكنها محسوسة. كأن الهواء نفسه ينحني عند حدودها.

وفي الدائرة، مقاعد صغيرة، خشبية، بسيطة، كتلك التي في رياض الأطفال. عليها أسماء مكتوبة بخط طفل لا يتقن الكتابة بعد: ياسين، سارة، علي، ليلى، محمد، فاطمة، عبد الله.

كانت المقاعد مشغولة.

لم تكن الأجساد هناك. لكن المقاعد بدت كأن أحدًا جلس عليها ثم غادر للحظة. لا تزال دافئة.

نظرت حولي. لم أرَ أحدًا.

لكنني شعرت بأعين تراقبني. أعين سوداء. ليست أعين بشر. أعين قطط.

كانت جالسة على الجدران، على الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي، على الكتب القديمة المكدسة في الزاوية. قطط سوداء. العدد لا يثبت. كلما حاولت عدها، كانت تتحرك. كأنها لا تريد أن تُحصى.

إحداهن—أو ربما تلك التي كانت تجلس على أعلى رف—كانت تنظر إلي بعينين مختلفتين: واحدة صفراء، والأخرى زرقاء كلون البحر قبل العاصفة.

فتحت فمها.

لم تموء. تكلمت. بصوت ليس من حنجرة قطة. صوت طفلة تتعلم القراءة.

قالت: أين الثامن؟

لم أفهم السؤال. أردت أن أسأل: أي ثامن؟ لكن صوتي لم يخرج. فمي كان مفتوحًا، لكن الكلمات كانت تموت قبل أن تولد.

القطة الأخرى—التي كانت تجلس على الأرض قرب المقعد الفارغ—رفعت رأسها. كانت أصغر من غيرها. ربما هرّة صغيرة. شعرها أسود كالبحر ليلاً. لكن عينيها كانتا بيضاء بالكامل. لا سواد فيها. لا لون. فقط بياض. كأنهما عينا من لا يرى.

قالت: الثامن ينتظر.

لم أعد في القبو. صرت في غرفة واسعة، سقفها مرتفع، جدرانها من الرخام الأبيض. لا نوافذ. لا أبواب. فقط باب واحد، بعيد، صغير، في نهاية قاعة لا تنتهي.

وفي وسط الغرفة، فتاة.

كانت ترقص.

ترتدي ثوبًا أحمر. أحمر قانٍ. أحمر كالدم الذي رأيته في صور الجريمة. أحمر كالخاتم الذي كان في إصبعي قبل أن يحترق.

لكن الدم الذي كان يسيل منها لم يكن أحمر.

كان أبيض.

يتدفق من أصابعها، من شعرها الأسود الطويل الذي ينسدل على كتفيها، من أطراف ثوبها الأحمر. يتدفق كالحليب. كاللبن. يتجمع على الأرض الرخامية البيضاء في برك صغيرة تعكس الضوء.

وكانت ترقص.

رقصة بطيئة. ليست فرحًا. ليست حزنًا. رقصة كمن تنتظر. كمن تدور في مكانها لأنها لا تستطيع أن تخطو خطوة إلى الأمام ولا إلى الخلف.

وجهها كان جميلاً. جميلاً بطريقة لا تطاق. كوجه طفلة في السادسة. وكوجه امرأة في الأربعين. كوجه كل من رحلوا عني. كوجه أمي التي لا أتذكر ملامحها لكنني أتذكر يديها.

وعيناها كانتا مغمضتين.

مثل الأطفال في القبو. مثل الذين قال لهم كمال:

–لا تفتحوا أعينكم، إن فتحتم تخسرون.

كانت ترقص وعيناها مغمضتان، والدم الأبيض يتدفق منها، والثوب الأحمر يلتف حولها كشرنقة لا تنفك.

قالت—أو ربما لم تقل، ربما سمعت صوتها في رأسي فقط—قالت: ألستَ أنت الثامن؟

أردت أن أقول لا. أردت أن أقول: أنا المحامي. أنا من يدافع عن القتلة. أنا من يقرأ الملفات وينام بعدها. أنا لست طفلاً. أنا لست في القبو. أنا لست جزءًا من اللعبة.

لكنني نظرت إلى يدي.

كانتا صغيرتين. صغيرتين جدًا. كفا طفل في الخامسة. على إصبعي الصغرى، ندبة بيضاء. ندبة الخاتم الذي احترق. ندبة من لا يتذكر متى جرح نفسه أول مرة.

وكانت الفتاة ذات الثوب الأحمر لا تزال ترقص. والدم الأبيض لا يزال يتدفق. والقطط السوداء جلست الآن في دائرة حولنا، تنظر بعيونها التي لا ترمش.

انقلب المشهد مرة أخرى.

وجدت نفسي جالسًا على كرسي في قاعة فارغة. القاعة التي يجلس فيها القضاة. لكن لا قضاة هناك. لا محامين. لا جمهور. فقط أنا، جالسًا حيث يجلس المتهم.

وأمامي، على منصة الشهود، لم يكن هناك أحد.

لكنني سمعت صوتًا. صوتًا أعرفه. صوت كمال داغلي. لكن كمال لم يكن هناك. الصوت كان يأتي من الجدران. من الأرض. من الضوء الخافت لمصابيح الفلورسنت التي تطن بملل.

قال الصوت: *"أنت تسأل عن الجروح. تسأل عن الدم. تسأل عن لماذا لم يقاوموا. لكنك لا تسأل عن الشيء الوحيد الذي يهم.

قال: هل كانوا سعداء؟

لم أجب.

قال الصوت: كل واحد كان يضحك قبل أن يأتي دوره. كل واحد كان يتخمّن اسم الذي صرخ. كل واحد كان يعتقد أن اللعبة ما زالت لعبة. حتى النهاية. حتى آخر واحد.

توقف. ثم قال بصوت كان أخفض من الهمس:

هل كانت لعبة جيدة؟

أردت أن أقول لا. أردت أن أقول إنها لم تكن لعبة. أردت أن أقول إنها كانت جريمة، طقسًا، جنونًا. أردت أن أقول كل ما تعلمته في كليات القانون، كل ما حفظته من مواد وقرارات تمييزية.

لكن لساني كان ثقيلاً. ثقيلاً كمن شرب عصيرًا مسكرًا في قبو. ثقيلاً كمن أغمض عينيه وظل يسمع أصواتًا ولا يعرف إن كانت حقيقية أم لا.

وانتهى الحلم.

أو ربما لم ينتهِ. ربما لا تزال الفتاة ذات الثوب الأحمر ترقص في مكان ما، والدم الأبيض يتدفق منها، والقطط السوداء تراقب. ربما لا يزال

الأطفال السبعة جالسين في دائرتهم، ينتظرون صوتًا لا يأتي. ربما لا يزال المقعد الثامن فارغًا.

استيقظت فجأة.

الغرفة كانت مظلمة. الستائر الثقيلة لا تدع ضوء المدينة يتسلل. ساعة الحائط لا تعمل. لا أعرف كم نمت. لا أعرف كم مضى.

لمست إصبعي الصغرى.

لا خاتم هناك. فقط الندبة البيضاء. ندبة كأن الجلد هناك لم يولد بعد.

جلست على حافة السرير. أطرافي كانت ترتجف. عرقي بارد. فمي جاف. وفي رأسي، سؤال واحد لا يغادر:

–هل كنت أنا الثامن؟

نهضت. مشيت إلى النافذة. سحبت الستارة.

نخيل بسكرة كان واقفًا في الظلام كجنود صامدين. القمر كان عاليًا. أبيض. أبيض كالدم الذي رأيته في الحلم.

نظرت إلى السماء. نظرت إلى النخيل. نظرت إلى يدي اللتين كانتا صغيرتين في الحلم وكبرتا الآن.

قلت بصوت لم يسمعه أحد:

- أنا لم أقتل أحدًا. أنا فقط أدافع عن القتلة.

لكن الكلمات سقطت مني ثقيلة، ثقيلة كمن يحاول إقناع نفسه بشيء لا يصدقه.

عدت إلى السرير. لم أغمض عيني. ظللت أنظر إلى السقف. إلى مصباح الفلورسنت الأبيض الذي لا يضيء حقًا. الذي يطن بملل. الذي يلقي بضوئه القاسي على كل شيء فيجعله يبدو كجثة في مشرحة.

وسمعت ضحكة طفل. عالية. تملأ المكان.

ضحكة لا أعرف إن كانت حقيقية أم من الحلم.

ضحكة لا أعرف إن كانت من الماضي أم من المستقبل.

ضحكة لا أعرف إن كانت لي أم لطفل آخر لا يزال ينتظر في قبو ما، عيناه مغمضتان، وأذناه مصغيتان، يظن أنها لا تزال لعبة.

أغمضت عيني.

وقلت لنفسي: أنا لست الثامن.

****

الفصل الأخير: عتبة الحقيقة

في الصباح الذي سبقت فيه الجلسة الختامية لقضية كمال داغلي، لم أكن بحاجة إلى منبه. استيقظتُ والهدوء يلف غرفتي في فندق الزيبان، هدوء لم أعهده منذ عشرين عاماً. نظرتُ إلى يدي؛ كانت عارية، خفيفة، وكأن قيداً ثقيلاً قد سقط عنها. لم يعد هناك ما يضغط على تفكيري سوى تلك الصور السبع للأطفال، لكنها لم تعد صوراً في ملف، بل صارت وجوهاً تطالب بحقها في الوجود.

وقفتُ أمام المرآة. لم أكن أرى المحامي المشهور الذي يتلاعب بالنصوص ليخرج القتلة من سم الخياط. رأيتُ ذلك الشاب الذي كان في الثامنة والعشرين، ذلك الذي كان يظن أن القانون "كتاب مقدس". لقد استعدتُ ذلك الشاب، لكن بمرارة التجربة وثقل الندم.

فتحتُ حقيبتي. أخرجتُ ملف القضية رقم 47. مزقتُ المرافعة التي كتبها "دكتور الفلسفة المجنون" والتي كانت تتمحور حول ثغرات الإجراءات وجنون المتهم. أخذتُ ورقة بيضاء، وقلمي الذي طالما سطر

أكاذيب أنيقة، وكتبتُ في رأس الصفحة: **"مذكرة في سبيل الحقيقة لا الدفاع"**.

خرجتُ من الفندق. كانت شمس بسكرة تملأ الشوارع بوضوح كاشف. مشيتُ نحو المحكمة بخطوات واثقة، لم أكن أهرب من العيون هذه المرة. لم أكن بحاجة إلى "تازو" لتشد من أزري، ولا إلى "فريقي" ليزيف لي دليلاً. كنتُ وحدي، ولأول مرة، لم أشعر بالوحدة.

عند مدخل قصر العدالة، توقفتُ لحظة. نظرتُ إلى النخيل الباسق الذي شهد على انكساراتي ونجاحاتي الزائفة. شعرتُ برغبة قوية في الاعتذار لكل أم بصقت في وجهي، ولكل أب تركته يغرق في قهره وأنا أحتفل بـ "براءة" قاتل ابنه.

اقتربتُ من قاعة الجلسات. الزحام كان شديداً، وكاميرات الصحافة تترصد "محامي الظل" الذي سيفجر مفاجأة اليوم. لكنني لم أكن "ظلاً" بعد الآن.

دفع الحارس الباب الخشبي الثقيل. صرير الباب كان يعلن نهاية حقبة وبداية أخرى. داخل القاعة، ساد الصمت بمجرد دخولي. نظر إليّ كمال

داغلي من خلف القضبان بنظرة تائهة، ونظر إليّ القضاة بانتظار تلك الحيل القانونية التي اشتهرتُ بها.

وضعتُ حقيبتي على الطاولة. سويتُ هندام بدلي، لا لأبدو أنيقاً، بل لأبدو جديراً بالمكان الذي سأقف فيه. نظرتُ إلى منصة القضاء، ثم إلى عائلات الضحايا في الصفوف الأولى. لم أكن أرى خصوماً، كنتُ أرى بشراً أخطأتُ في حقهم طويلاً.

استقام ظهري، واختفى ألم السقوط القديم عن حصاني "سبارتكوس"؛ كأن روحي هي التي كانت منحنية، والآن انتصبت.

قال رئيس الجلسة: "الكلمة للدفاع".

تقدمتُ نحو المنصة. لم أفتح الملف. نظرتُ في عيون القاضي مباشرة، وقلت بصوت هادئ، رزين، يحمل ثقل الصدق: **سيدي الرئيس، لستُ هنا اليوم لأدافع عن شخص، بل جئتُ لأدافع عن العدالة سأتحدث بالنيابة عن الحقيقة، حتى لو كانت حبل المشنقة الذي سيلتف حول مسيرتي المهنية.......؟**

في تلك اللحظة، شعرتُ أن باب القاعة الذي دخلتُ منه قد أغلق خلفي تماماً، ليس ليحبسني، بل ليفصل بين رجل مات، وإنسان بدأ لتوه يتنفس.

.. يتبع